رواية

بالأمس كنتُ هنا

زينب حفني

نوفل

رواية

بالأمس كنتُ
هنا

زينب حفني

نوفل

جميع الحقوق محفوظة.

صدرت عام 2020 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان

© هاشيت أنطوان ش.م.ل.، 2020

بناية أنطوان، الشارع 402، المكلّس، لبنان
ص. ب. 0656-11، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
facebook.com/HachetteAntoine instagram.com/HachetteAntoine twitter.com/NaufalBooks

لا يجوز نسخ أو استعمال أيّ جزء من هذا الكتاب في أيّ شكل من الأشكال أو بأيّ وسيلة من الوسائل – سواء التصويرية أو الإلكترونية أو الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات أو استرجاعها – من دون الحصول على إذن خطّي مسبق من الناشر.

صورة الغلاف: © **Jane Morley / Trevillion Images**
تصميم الداخل: **ماري تريز مرعب**
تحرير ومتابعة نشر: **رنا حايك**

رقم الإيداع (النسخة الورقية): 978-614-469-789-4
رقم الإيداع (النسخة الإلكترونية): 978-614-469-790-0

هناك حبّ مثل الـ«آيس كريم»، ما إن يتعرّض لحرارة الشمس، حتّى يذوب ويتساقط كقطرات الماء على الأرض. وهناك حبّ صلب، يظلُّ متماسكاً، حتّى لو تعرّض للشعاع الذرّي!

1

المكان Boca Raton.

مدينة ساحلية جميلة تطلُّ على المحيط الأطلسي، تقع في مقاطعة بالم بيتش التابعة لولاية فلوريدا. المسافة بين بوكاراتون وميامي لا تتجاوز 75 كيلومتراً. الوصول منها إلى ميامي يستغرق ساعة تقريباً. ميامي، مدينة السحر، ومصيف الأثرياء كما يُطلقون عليها. نسبة كبيرة من سكّانها تعود أصولها إلى أميركا الجنوبيّة وأميركا الوسطى، منهم من نجح في الهجرة إليها خلسة تحت جنح الظلام، ومنهم من أتى إليها في وضح النهار، بحثاً عن الثروات وأملاً في تحقيق الأحلام... البعض ظلّوا متمسّكين بلغتهم الأمّ، ولا يُجيدون التحدّث باللغة الإنجليزيّة بطلاقة.

كان التوقيت في بوكاراتون يدلّ على الساعة الثانية عشرة ظهراً. الشمس تتوارى حيناً، وتظهر حيناً آخر. السماء مُتكدّرة ببعض الغيوم القاتمة، المنذرة بهطل الأمطار، كأنّها تتردّد في ذرف دموعها للتفريج عن همّها، والتعبير عن ضجرها من مراقبتها الدائمة لنزوات البشر! كان الهواء شديداً بعض الشيء، جعل الأغصان شبه العارية للأشجار المصطفّة على جانبي الرصيف، تتمايل معه كلّما لامسها. حركة الحياة بدت طبيعيّة في الأحياء السكنيّة، وفي المراكز التجاريّة، وداخل المقاهي. كلّها تعجُّ بالناس من مختلف الأعمار والجنسيات. كلّ فرد يحمل همومه داخل ذهنه، منهمكاً بما سينجزه هذا النهار. لا أحد يشغل باله بمن مات اليوم، أو من تعرّض لحادث، أو كم عدد المواليد الذين خرجوا إلى النور من أرحام أمّهاتهم في تلك اللحظة!

كانت أجراس الكنيسة تُقرع. وصلت موسيقى رنينها إلى أسماع جاسمين، وهي مشغولة بركن سيّارتها. هرولت صوب مدخل الكنيسة. كانت مراسم

العزاء قد بدأت، حين دلفت إلى داخل القاعة. تعلم بأنّها تأخّرت. حدث بدون قصد منها. أحد إطارات سيّارتها ثُقب أثناء سيرها. اضطرّت إلى التوقّف، وطلب المساعدة من أحد المارّة لتغييره. رمت بصرها ناحية جثمان أمّها القابع داخل التابوت. كان من النوع الباهظ الثمن. خشبه مصنوع من شجر الصنوبر البرّي، ومُبطّن داخله بالساتان الأبيض. صوّب الحاضرون أنظارهم نحو جاسمين لحظة دخولها. اعتراها الخجل لتأخّرها. ملامح الحزن كانت طافية على وجهها. لم تُدقّق في وجوه الجالسين. اتّجهت مباشرة صوب الصفّ الأول. جلست على أحد المقاعد الخالية المواجهة للمنصّة. كان القسّ يتحدّث عن مناقب والدتها. كيف كانت تُواظب على حضور قدّاس يوم الأحد. حرصها على التبرّع للكنيسة بصفة دائمة. أثنى على نشاطاتها الخيريّة، التي كان من ضمنها، عضويّتها في عدد من الجمعيات المتباينة الاختصاصات. أنهى كلمته. بدا عليه التأثّر. أشار القسّ بيده لجاسمين، كي تصعد على المنبر. قامت من مكانها. وقفت برهة صامتة، خلف منصّة الخطابة. أخذت عيناها تجولان في أرجاء القاعة. أنظار الجميع انصبّت عليها. استجمعت شجاعتها.

قالت عبارات مختصرة: «أبي وأمّي كانت تربطهما علاقة روحانيّة بهذه الكنيسة. كنتُ أرافقهما دوماً في صغري. عند وصولي إلى سنّ المراهقة، صارت زيارتي للكنيسة متقطّعة. كانت أمّي تُظهر غضبها منّي. تحثّني على الذهاب معها. أطاوعها حيناً، وفي أحيانٍ أخرى أتهرّب من مرافقتها. كلّ ما يُمكنني قوله في هذه اللحظة، أنّني فقدتُ أمّي. كانت الحضن الآمن الذي يحميني من زلّاتي، ومن الشرّ المليء في هذا العالم. لن يستطع أحد تعويضي عنها. الحاضرون يعلمون فداحة مصابي».

توقفت فجأة عن الكلام. أخذت تُنهنه بصوت خافت. نهضت سوزان من مقعدها. كانت الصديقة المقرّبة لوالدتها. لفّت ذراعها حول خصر جاسمين، وساعدتها على الرجوع إلى مكانها. اعتلت سوزان المنصّة. ألقت كلمة تأبين بحق صديقتها. تحدّثت عن علاقتها بمريام، ومن أين نشأت صداقتهما. حكت كيف تقابلتا أوّل مرّة في أحد المقاهي بوسط مدينة بوسطن. كان المقهى ذلك الصباح مُزدحماً، وظلّت تدور بحثاً عن طاولة فارغة. أشارت لها مريام بيدها، قائلة: «لا أحد معي، بإمكانك الجلوس». تعارفتا، وتبادلتا أرقام هواتفهما في نهاية اللقاء. كانت هذه انطلاقة لصداقة استمرّت أكثر من ستة عشر عاماً

إلى أن توفّاها الله. ذكرت مواقفها النبيلة معها، وأنّها كانت نِعم الأخت الوفيّة. حكت عن مساندتها لها في محنتها، حين فقدت جنينها قبل أن يرى النور. كيف كان الأمر صعباً عليها حيث لم تستطع حينها تقبّل فكرة خسارتها لطفلها، خاصّة بعد علمها بعدم قدرتها على الإنجاب مرّة ثانية نتيجة لاستئصال رحمها حفاظاً على حياتها. كلّ هذه الأحداث التي تعرّضت لها أيّامها، دفعتها لمحاولة الانتحار بأخذ كميّة من الحبوب المهدّئة. ظلّت أياماً في المستشفى لم تُفارقها مريام، وساعدتها على تجاوز صدمتها، وشجّعتها على الخروج من حالة الإحباط والكآبة التي كانت مُسيطرة عليها.

حكت سوزان كيف أقنعتها مريام، بعد استقرارها مع زوجها في بوكاراتون، أن تنتقل هي الأخرى مع زوجها إلى بوكاراتون كي لا يفترقا وتفتر علاقاتهما مع بُعد المسافات. ابتسمت، متابعة، أنّ مريام صديقتها كانت لديها قدرة ساحرة على إقناع الآخرين بما تريده. كانت لمّاحة، ذكيّة، معطاءة. تتمتّع بحسّ فكاهي، يُحبّب أيّ إنسان بالتقرّب منها. ختمت كلمتها بالقول، بتأثّر، إنّ مريام كانت تستشعر قُرب منيّتها. أخبرتها أنّها طلبت تابوتاً بمواصفات معيّنة عبر الإنترنت، من أحد أشهر المتاجر المتخصّصة بصناعة التوابيت. أكّدت أنّ هذه الواقعة حدثت قبل وفاتها بثلاثة أشهر. استرسلت سوزان في حديثها، بأنّها عبّرت وقتها لمريام عن قلقها من تصرّفها، وأنّ العمر لم يزل أمامها، وأنّها بمأمن من شباك الموت. تتذكّر أنّ مريام ردّت عليها بابتسامة هادئة علت صفحة وجهها، أنّ الموت لا يُؤمن جانبه، وأن لا عزيز عنده، فالكلّ متساوٍ حين تحين المنيّة. لا ينظر إلى أعمار البشر حين يُزهق الأرواح، وإنّما يختار ضحاياه حسب ما هو مُسجّل في قائمته اليوميّة الطويلة، وأنّ اسمها ربّما أُدرِج من دون علمها، وأنّ كلّ ما في الأمر أنّها تُريد أخذ احتياطاتها، ووضع بصمتها على كلّ شيء يخصّها قبل رحيلها. أنّها طوال عمرها كانت تكره أن يتحمّل أحد شؤونها، خاصّة إن تعلّق برحلتها إلى مثواها الأخير. ختمت سوزان كلمات تأبينها بالترحّم على روح صديقتها.

اعتلت المنصّة إميليا، صديقة والدتها الثانية. كانت إميليا من أصول يونانيّة. هاجر والداها إلى أميركا قبل أكثر من خمسين عاماً. وُلدت في ميامي. لا تعرف غير أميركا وطناً لها. سافرت عندما كانت في بداية سنّ المراهقة، برفقة والديها، إلى اليونان. رغبا أيّامها في تعريف ابنتهما بموطن أبويها

الأصليّ. لم يُحرّك مشاعرها أيٌّ من الأماكن التي قصدتها معهما. كانت تجول بعينَيْ سائحة يُحرّكها الفضول، لرؤية آثار حضارة اندثرت، ولم يعد لها وجود على أرض الواقع، لا بعينَيْ فتاة تربطها صلة قويّة بجذور هذه التربة. خاطبت والديها بنبرة يُغلّفها البرود: «قد أكون مُخطئة، لكنّني لستُ من هواة البكاء على الأطلال، والتفاخر بأمجاد الماضي، والانبهار بالتماثيل القديمة! لا أبالغ إذا قلت إنَّ الأتربة المنبعثة منها، تُهيّج حساسية أنفي». تبادل والداها النظرات. اكتفيا بالصمت وإرخاء أهدابهما. كانت تلك الزيارة اليتيمة لها لأثينا. لم تُفكّر بعدها في تكرار الزيارة... وقعت في حبّ رسّام من أصول إيطاليّة، كان يملك معرضاً صغيراً في مدينة ميامي. بهرتها موهبته. تزوّجته واستقرّت معه في مدينة بوكاراتون. أنجبت ولدين توأمين. حكت إميليا عن بداية معرفتها بمريام، واللحظة التي نشأت فيها صداقة قويّة بينهما، مضت عليها سبع سنوات. كيف التقت بمريام صدفة، في متجر الأزياء الذي تملكه. أخذت تسرد كيف كانت تدور يومها في أرجاء المتجر، حائرة في اختيار ثوب يتناسب مع ذكرى عيد زواجها. اقتربت منها مريام باسمة، وقالت لها: «ألم يقل لك أحد من قبل، إنّكِ تشبهين الممثّلة جينيفر أنيستون؟».

ضحكت إميليا. عندها عرّفتها مريام بنفسها، وبأنّها مالكة المتجر. سألتها عن أيّ شيء تبحث، كي تُساعدها في الاختيار! وضعت مريام أمامها عدداً من الملابس التي تُلائم المناسبة، وتليق بتقاسيم جسدها المائل للنحافة. تبادلا أرقام هواتفهما. من لحظتها أصبحتا صديقتين.

كان الحضور في مراسم العزاء ضئيلاً لا يتجاوز العشرين، أغلبهم من النساء. كان منهنَّ عدد من جارات الحيّ الذي تسكن فيه جاسمين مع أمّها، إلى جانب مديرة مدرسة جاسمين، ومعلمتين من معلماتها اللائي يقمن بتدريسها. لم يكن لجاسمين وأمّها أيّ أقارب. كان والدها قد تُوفّي قبل ثماني سنوات. لم تلتقِ قطّ بجدّيها من طرفي والدها أو والدتها. تُوفّي الجميع قبل ولادتها. كانت تتمنّى أن تتذوّق طعم حنان وعطف الجدّ والجدّة. ذلك الشعور اللذيذ الذي ظلّت تُراقبه بعينيها عند زيارتها لبيوت الجيران مع والدتها. تُلاحظ بشغف تلك العلاقة العفويّة الجميلة، فترميهم بنظرات مُفعمة بالإعجاب. ألقت نظرة أخيرة على جسد والدتها المسجّى داخل التابوت، قبل أن يغلقوا سقفه، ويحملوه إلى داخل السيّارة الليموزين لدفنه في المقبرة. كان وجه أمّها

مستكيناً. تعلوه مساحيق خفيفة. شعرها الكثيف القصير، المائل للّون البنّي، غطّى أعلى رقبتها. غرّتها الجانبيّة دارت جزءاً من جبينها. ألبسوها بدلتها الرماديّة المصنوعة من قماش الكريب. تحت البدلة، كان هناك قميص أبيض من الحرير، مقفولة ياقته العلويّة بزرّ من اللؤلؤ الأبيض. تفوح من جثمانها رائحة زكيّة. تتذكّر عبارة أمّها لها: «لا أحبُّ المساحيق الكثيفة، تُذكّرني بمهرّجي السيرك. عندما أموت، أريدهم أن يضعوا على وجهي مكياجاً بسيطاً. كما أودُّ أن يُطيّبوا جسدي برائحة الياسمين»، متابعة بنبرة مرحة: «لذا أطلقتُ عليك هذا الاسم. لا تنسي يا جاسمين هذه الوصايا».

شعرت بغصّة في حلقها. تحسّرت على رحيل أمّها المبكر. لم تزل أمّها في الأربعينات من عمرها. وجهها محتفظ برونقه. جسدها ما زال مُتماسكاً. أخذت الدموع تنهمر من عينيها في صمت. لفّت سوزان ذراعها حول خصر جاسمين. مالت جاسمين برأسها على كتفها. ربّتت سوزان ظهرها بحنوّ. تحرّكت سيّارات المعزين صوب المقابر. أُخرج التابوت من السيّارة، ووُضع على الأرض حال وصولهم. أخذ القسّ يقرأ من الكتاب المقدّس. رشّ الماء المقدّس عليه، بعدما أنهى صلاته. رمى المعزّون الورود على التابوت، قبل أن يتمّ إنزاله داخل الحفرة، وإهالة التراب عليه. ودّع المعزّون جاسمين بعبارات مواساة. شكرت الجميع على حضورهم. خفَّ وقع الأقدام.

لم يبقَ في المكان سوى سوزان وإميليا. عرضتا على جاسمين المبيت عند واحدة منهما. اعتذرت لهما بلطف. ركبت سيّارتها. سارتا خلفها بسيّارتيهما. رافقتاها حتّى باب منزلها. وعدتاها بزيارتها بين الحين والآخر للاطمئنان عليها. ألحّتا عليها أن لا تتردّد في الاتّصال بهما، إذا رغبت في الحصول على مساعدة من أيّ نوع. ضمّتاها بحرارة. كان الحزن بادياً عليهما. ودّعتهما جاسمين، ودلفت إلى الداخل. أحكمت إغلاق باب البيت. ألفت المكان موحشاً، كأنّه لم يزل عالقاً في براثن الموت يأبى مُفارقته. «لماذا للموت كلّ هذه الرهبة؟ لمَ عندما يموت من نحبّهم، تُصيبنا صدمة عدم تصديق ما حدث؟ هل لاعتقادنا بأنّ الموت عاجز عن الاقتراب ممّن نُحبّ؟ هل لأنّنا نظنّ أنّ من نحبّهم لا يُمكن أن يتخلّوا عنّا بسهولة، وسيبقون بجوارنا إلى الأبد؟ كم أكره هذا الوحش الذي لا يرحم. ليتني أستطيع أن أقابله، لأعاتبه برقّة، ربّما يرأف بأفئدة البشر، ويتركهم يشبعون من أحبابهم». أوقفت جاسمين سيل خواطرها. كان الأسى

يملأها. وقع بصرها على شجرة أعياد الميلاد. كانت لم تزل واقفة بجانب النافذة في غرفة المعيشة. أغصانها شبه عارية. تذكّرت أنّ والدتها اعتادت تجهيزها قبل أعياد الميلاد بأسابيع. كانت تحثّ جاسمين على اختيار معلّقات الزينة معها. كانت تثق بذوقها. تلفّان على المتاجر، لانتقاء الجديد. اتّجهت جاسمين صوب الشجرة. أمسكت بيدها كرة خضراء، برّاقة اللون من مُعلّقات الزينة. سرحت جاسمين فيها. تتذكّر أنّ أمّها كانت تحرص دوماً على تعليق هذا اللون تحديداً. ترى أنّه يرمز إلى الشباب والأمل، بجانب كونه لوناً مرتبطاً بجمال الطبيعة التي كانت تعشقها. قالت لجاسمين وهي تُعلّق الكرة على أحد أغصان الشجرة: «عندي شعور غريب، بأنّ هذه ستكون المرّة الأخيرة التي سأزيّن فيها شجرة عيد الميلاد». نظرت إليها جاسمين بفزع. قبّلتها أمّها على صدغها، قائلة: «لا تجزعي، كانت مجرّد عبارة خطرت على بالي. أنا بخير». أوقفت جاسمين شريط أفكارها. صعدت إلى غرفتها. حلّت عُقدة شعرها. حرّرت قدميها من حذائها الأسود المسطّح. سحبت جواربها السوداء الشفافة من أعلى ساقيها. خلعت ثوبها الأسود. وضعته على المشجب. تمدّدت بملابسها الداخلية على سريرها. «أكره الملابس الرسميّة، واللون الأسود تحديداً»، قالت لنفسها. كان البيت مكوّن من طابقين. يحتوي الطابق الأرضي على غرفة مكتب تخصُّ والدها، مُصمّم أثاثها على الطراز الكلاسيكي. تُوجد فيها مكتبة كبيرة للكتب برفوف متعدّدة، تُغطّي جدارين من الغرفة. وهناك غرفة معيشة كبيرة، مُتّصلة بشرفة تطلُّ على الحديقة. أثاث الصالة كان على الطراز الأميركي. لونه كريمي. مُصمَّم على شكل نصف دائري. على جانبيه تقبع طاولتان متوسّطتا الحجم، مربّعتا الشكل. في إحدى الزوايا، يُوجد عمود إضاءة. في نهاية غرفة الجلوس، هناك بيانو أبيض، على غطائه نقوش مذهّبة، يخصُّ والدتها. كانت قد اشترته من أحد المزادات بمبلغ باهظ. المطبخ يُجاور غرفة الجلوس. له باب آخر يُطلُّ على حديقة البيت الخلفيّة. في الطابق الثاني غرفتا نوم رئيسيتان، متوسّطتا المساحة. كلّ غرفة مُرفق بها دورة مياه خاصّة. بين الغرفتين كانت هناك غرفة صغيرة، اعتادت والدة جاسمين وضع حاجياتها القديمة فيها. كان أثاث غرفة جاسمين حديث الطراز، أبيض اللون. ستائر النوافذ ممزوجة بألوان زاهية. الحائط مُغطّى بورق جدار مموّج باللونين الأبيض والزهري. اعتادت جاسمين تغيير لون ورق جدران غرفتها، ولون

الستائر كلّ عام. كانت غرفة نوم والدتها من الطراز الكلاسيكي. أثاث الغرفة بنيّ اللون. ستائر النوافذ لونها بيج، وأطرافها مزيّنة بشرائط ممزوجة باللونين البنّي والبيج. لم تُغيّر أمّها أثاث غرفتها منذ وفاة والدها. كانت تقول لجاسمين: «أبوك هو من اختار كلّ قطعة في هذه الغرفة. إذا فرّطتُ في شيء منها، أكون قد أضعتُ جزءاً من ذكرياتي معه».

يقع البيت ضمن مجمّع سكني كبير في Ponica Street. تُحيط بالمجمّع حديقة واسعة، تُغطي أرضها أعشاب خضراء مُقلّمة، وشُجيرات صغيرة الطول. المجمّع يقع في حيّ راقٍ بالقرب من بحيرة بوكاراتون. شعرت جاسمين بكتلة من الألم تجثم على صدرها، وبحاجتها للترويح عن نفسها. قرّرت المشي على قدميها في الهواء الطلق. ارتدت شورتاً من الجينز. وضعت فوقه قميصاً أبيض قصيراً بكمّين قصيرين. انتعلت بقدميها حذاءها الرياضي الأبيض Nike، الماركة المفضّلة لديها. سارت بمحاذاة البحيرة. كانت أبواق السيّارات المارّة، وبريق مصابيحها العالية، تهز انفعالاتها المتضاربة بداخلها. موسم الخريف يُواصل تعريته للطبيعة مع منتصف شهر أكتوبر. أوراق الشجر الصفراء الجافّة تُغطّي أرضيات الرصيف، وتتطاير بعشوائيّة هنا وهناك. يخترق سمعها حفيف الأشجار كلما هبّت رياح خفيفة. بدأت زخّات من المطر تُبلل وجهها وشعرها. فتحت فاها. أخرجت لسانها. استعذبت القطرات المتسرّبة إلى حلقها. أخذت تتلهّى بالاستماع إلى صوت خطواتها. هذا الوقت من العام يكون الطقس فيه متقلّباً. حضرت والدتها بقوّة في خاطرها. «أيَّ نوع من الأمّهات كنتِ يا أمّي؟ لطالما كنتِ امرأة غامضة. لا يعرف أحد ما يدور بداخل رأسك، إلّا إذا أفصحتِ بلسانكِ»، أخذت جاسمين تُخاطب أمّها في سرّها كأنّها ماثلة أمامها. تُدرك أنّ علاقتها بأمّها لم تكن هادئة. كانت في أكثر الأحيان في حالة شدّ وجذب. لم يكن فيها ذلك القدر من الحميميّة التي تتشكّل عادة بين الأمّ وابنتها. ربّما كان هذا يعود إلى طبيعة أمّها المتسلّطة. كانت تُحاصرها. تستجوبها عن كلّ زميلة أو زميل يرغب في التقرّب منها. تُبرّر لها أفعالها بالخوف عليها، وبأنّها لم تصل إلى المرحلة التي تستطيع فيها تمييز أو اكتشاف نيّات الناس تجاهها. لم تعرف قدر المسافة التي قطعتها على قدميها. نظرت إلى ساعة يدها. اكتشفت أنّها مشت أكثر من نصف ساعة. وجدت نفسها واقفة أمام مقهى «ستاربكس». دلفت إلى الداخل. طلبت كوباً من «الموكا» الساخنة بالكريمة المخفوقة.

جلست على طاولة ملاصقة لزجاج المقهى. أخذت تُلاحق بناظريها قطرات المطر، وهي تتدحرج على الأرض. حاصرتها فجأة جحافل الحزن. استسلمت لأنين قلبها. استوعبت أنّ أمّها قد ماتت. أنّها لن تراها بعد اليوم. تعجّبت من شعورها المفاجئ! لم تكن تتوقع أن يتراكم كلّ هذا الكمد في قلبها، لفراق أمّها! كانت تثور في أغلب الأحيان عليها، مُظهرة لها تبرّمها من محاصرتها لها، وحشر نفسها في كلّ صغيرة وكبيرة من تفاصيل يومها. كانت حياة جاسمين خالية من الأصدقاء والصديقات. تُلقي اللوم بداخلها على أمّها، لكونها زرعت الشك في قلبها تجاه كلّ من كان يسعى للتقرّب منها. تُقول لها على الدوام، لن تجدي قلباً يُحبّكِ كأمكِ. كانت جاسمين ستدخل عامها الثامن عشر بنهاية شهر ديسمبر، الذي يتوافق مع أعياد رأس السنة. كانت قد عزمت بينها وبين نفسها، عند تخرّجها من الثانوية العامة هذا العامّ، أن تنفصل عن والدتها. أن تواجهها برغبتها في السفر إلى مدينة نيويورك، وتقديم أوراقها في جامعة كولومبيا، والعيش في سكن الجامعة هناك. تعلم بأنّ قرارها كان بالتأكيد سيؤلم أمّها التي كثيراً ما لمّحت لها إلى رغبتها في أن تدرس بجامعة Florida Atlantic لتظلَّ قريبة منها. أخرجت جاسمين زفرة طويلة من أعماقها. كلّ توجّساتها ذهبت أدراج الرياح. لم تعد أمّها موجودة لتعوق أحلامها. تركتها دون سابق إنذار أو حتّى كلمة وداع. خطفها الموت، وبدّد بالتالي كلّ مخاوف جاسمين من ردود فعلها على خططها المستقبليّة. شعرت بحرارة أنفاسها ترتدُّ على زجاج المقهى مُخلّفة طبقة من الضباب الخفيف.

تلفّتت حولها. المقهى يكاد يكون شبه فارغ من الزبائن باستثناء ثلاث طاولات. على الطاولة القريبة منها، جلس رجل مسنّ يبدو في السبعينات من عمره، مُتدثّراً بمعطف زهيد الثمن. عيناه شاردتان في اللاشيء. خطوط الزمن حفرت أظافرها بقسوة على صفحة وجهه الطافح بالأسى. «تُرى، هل رحلت شريكة حياته التي كانت تُؤنس وحدته؟ هل فقد عزيزاً لديه؟»، تساءلت جاسمين في قرارة نفسها. رمت نظراتها باتّجاه الطاولة الثانية الموضوعة عند الزاوية. كانت تجلس عليها امرأة غاب رونق شبابها. كان وجهها متجهّماً، تنظر بقلق إلى ساعة يدها، رامية بصرها صوب الخارج. «تُرى، هل تترقب قدوم حبيب خيّب ظنّها، ونسي موعده معها؟ هل تنتظر صديقة مقرّبة منها كي تبوح لها بما يعتمل في صدرها من هموم؟». عادت جاسمين لسؤال نفسها. أدارت

رأسها صوب الطاولة الثالثة. كان يقبع عليها شابٌ بصحبة فتاة مُقاربة لعمرها، منغمسَين في تبادل القبلات الحارّة، وقد غمرت وجهيهما السعادة. أحسّت جاسمين بحرارة الرغبة تسري في عروقها، على الرغم من الحزن الجاثم على قلبها. تملّكتها الغيرة. تمنّت أن تكون في مكان هذه الفتاة، وأن تحظى بحبيب تجد روحها معه. أخرجت زفرة طويلة من أعماقها.

كان المطر قد توقّف. خرجت من المقهى. لاحظت أنّ حركة السيّارات قد قلّت. الرصيف لم يزل مُبلّلاً. كان لمعان سطحه يعكس أضواء أعمدة الإنارة. لم ترغب في إيقاف سيّارة أجرة. ارتأت أن تعود سائرة على قدميها إلى البيت. وضعت سمّاعة بأذنيها. اندمجت مع الأغاني المنبعثة من هاتفها المحمول. وصلت منهكة. لاحظت ارتجاف يدها، وهي تضع المفتاح في ثقب الباب، كأنّها امرأة في الثمانينات من عمرها، وليست شابّة في مقتبل عمرها. توهّمت لحظتها، أنّها ستسمع صوت أمّها عند ولوجها للداخل، تؤنّبها على تأخيرها، وترمي في وجهها تلك العبارات المملّة، التي ما فتئت تُكرّرها على مسامعها. تتذكّر أنّها انفعلت يوماً على أمّها. قالت لها: «أنتِ تُحاصرينني لأنّك تغارين من جمالي. تعلمين بأنّني سرقتُ الأضواء منك، وأنّه لم يعد لك تأثير على أيّ رجل!». لحظتها رمتها والدتها بنظرات غضب عارم. مشت من أمامها مكسورة الخاطر. ظلّت أسبوعاً تتحاشى التحدّث معها، أو النظر ناحيتها. رمّمت جاسمين الصدع بالاعتذار منها. أقسمت لها والدموع تنهمر من عينيها، وتُبلّل صدغيها، أنّها لم تكن تقصد حرفاً ممّا قالته. قالت لها حينها والدتها وهي تأخذها بين ذراعيها: «هل يغار المرء من توأم روحه، ومن فلذة كبده؟ أنتِ مجنونة! لا تُوجد أمّ سويّة تنظر إلى ابنتها كغريمة لها. أنتِ انعكاس لنفسي. أرى فيكِ آمالي التي لم أستطع تحقيقها في مقتبل شبابي. أنتِ مبعث سعادتي، وشُعلة الأمل التي تُضيء عمري». تناهت لها فجأة رنّة ضحكة والدتها الغريبة، التي تشبه نغمة قيثارة مقطوعة بعض أوتارها حين يكون مزاجها رائقاً! لم تكن جاسمين ترقّ لها ولا تُحبّ سماعها. كانت تعتقد أنّ رنّتها مصطنعة، خالية من العفويّة. طردت جاسمين تهيّؤاتها. حاصرها دبيب الصمت. رمت نفسها على الأريكة في غرفة الجلوس. نفذت إلى خياشيمها رائحة والدتها. أخذت تُحاور نفسها... «غريب هذا الأمر! لماذا رائحة من يُفارقوننا تقوى بعد رحيلهم؟ هل يعود هذا إلى أنّ أرواحهم تزورنا في الخفاء، ألماً على

فراقنا؟ هل لكونهم يُصرّون على البقاء بجوارنا؟ هل هو وهم نصنعه في عقولنا، لإدراكنا أنّنا لن نراهم ثانية؟ من أين أتيتُ بهذه الفلسفة؟ هل ورثتها عن جدّيّ اللذين لم أرَهما قطّ؟ هل ورثتها عن أبي الذي كما كانت تُردّد أمّي، كان مثقفاً، واسع الاطلاع، مُتّقد الفكر، قادراً على تحليل أعقد الأمور؟» توقفت جاسمين عن مُحاصرة نفسها بالأسئلة. تتذكّر أنّها كثيراً ما سألت أمّها في صغرها عن جدّيها لأمّها. لماذا لا تُوجد لهما صورة واحدة في البيت، كما تُوجد صور كثيرة لجدّيها لأبيها! أخبرتها أنّ جدّيها ماتا في حادث سيّارة بعز شبابهما، ولم يُنجبا غيرها. أنّها نشأت في إحدى دور الأيتام، وأنّها كانت صغيرة وقتها، لذا لم تستطع الاحتفاظ بصور لهما. مع مرور السنوات كفّت جاسمين عن طرح هذا النوع من الأسئلة. لم يعد الأمر يشغل بالها. عندما تمضي عجلة الأيّام، تجرف في طريقها الكثير من علامات الاستفهام، بدون أن ينتبه الإنسان إلى ما طرأ من تغيير عليه. تحضر هيئة أبيها في خاطرها. كان رجلاً حنوناً، معطاءً. حزنت جاسمين كثيراً لفراقه. كانت في عمر العاشرة حين تُوفي. مشاهد ذكرياتها معه كثيرة. تستحضر صورته حين كان يضعها على الأرجوحة التي أشتراها لها في عيد ميلادها السابع. كان يدفعها إلى الأعلى بحرص. تتدحرج ضحكاتها الطفوليّة من فمها الصغير. تستحثه على رفعها أكثر. يسألها بنبرة حانية: «هل اكتفيتِ؟». تهزُّ رأسها نفياً. يُعاود دفعها إلى أن تشعر بالدوار. ما زالت هذه الأرجوحة بمكانها في ركن الحديقة، وقد غطّتها أتربة السنوات. ترمقها جاسمين بطرف عينها أحياناً حين يشدّها الحنين إلى طفولتها. رفضت بإصرار اقتراح أمّها بوجوب التخلّص منها. كان هناك رابط عاطفي يجمعها بها. اعتاد أبوها أن يحكي لها قصّة ما قبل النوم. تتذكّر أنّها سألته مرّة: «هل ستموت يا أبي؟». كان لحظتها مُندمجاً في قراءة قصّة لها (بياض الثلج والأقزام السبعة). توقّف عن القراءة. سألها متعجّباً: «صغيرتي، لماذا خطر الآن على بالك هذا السؤال؟». أجابته بأنّ واحدة من زميلاتها، تغيّبت عن المدرسة بسبب وفاة أبيها في حادث سيّارة. مسّد على شعرها حينها، قائلاً: «اطمئنّي يا حبيبتي، لن أموت الآن. سأنتظركِ إلى أن تُصبحي عروسة، تتعلقين بذراعي يوم زفافك، وأسلّمكِ بنفسي إلى فارس أحلامك». اغرورقت عينا جاسمين بالدموع. تعبت من اجترار الذكريات، ومن كمّ التساؤلات التي

طرحتها على نفسها. قطع حبل أفكارها رنين جوّالها. رمت بصرها نحو شاشته. قرأت اسم ستيف. ابتسمت. أتاها صوت ستيف:

– آسف جاسمين لأنّني لم أحضر مراسم عزاء والدتك. أُلغيت رحلتي القادمة من لوس أنجلس. تعلمين أنّني كنتُ أزور والدتي المقيمة مع زوجها هناك.

– لا عليك، أقدّر ظروفك، وإن تمنّيتُ وجودك معي في هذا اليوم العصيب.

– آسف جاسمين مرّة أخرى، الأمر كان خارجاً عن إرادتي. لقد وصلتُ قبل قليل. هل يُمكنني الحضور إلى منزلك الآن؟

– أنا مُتعبة جدّاً يا ستيف، لنتحدّث في وقت لاحق.

أقفلت الخطّ. سرحت فيه. له موقع متميّز في قلبها. هو رفيق طفولتها، وزميلها في المدرسة منذ صغرهما. لديهما ذكريات مشتركة كثيرة. تعززت صداقتهما مع مرور السنوات. لم تكن والدتها تُحبّه. حاولت بشتّى الطرق إبعادها عنه. ترى أنّه لا يُناسبها اجتماعيّاً ولا طبقيّاً. حاولت جاسمين إقناعها بأنّ ستيف لا يتعدّى كونه الأخ الذي لم تحظَ به، والصديق الذي ترتاح لصحبته. لم يكن ستيف يروق أمّها. ظلّت تُعبّر صراحة عن تبرّمها من صحبتها له. كانت متخوّفة من أن تتحوّل صداقتهما فجأة إلى حبّ عنيف لا تستطيع إيقافه. ستيف ينتمي إلى أسرة متواضعة. أمّه تعمل نادلة في أحد مقاهي لوس أنجلس مع زوجها الذي يعمل حارس أمن في أحد البنوك الكبيرة هناك. يعيش منذ صغره مع والده بعد طلاقه من والدته. والده يعمل عامل بناء. يُقيم معه بشقة صغيرة في حيّ متواضع ببوكاراتون. كان ستيف يسبق جاسمين في الدراسة بسنة واحدة. تخرّج من المرحلة الثانوية العام الماضي. كان مكافحاً، مُحارباً شرساً في أعماقه. تعوّد منذ صغره الاعتماد على نفسه. كان يعمل في وقت فراغه بأحد مطاعم الوجبات السريعة، ليوفّر نفقات دراسته الجامعيّة. التحق بكلية الحقوق بجامعة Florida Atlantic. أمله أن يُحقق حلمه ويُصبح محامياً ناجحاً. كانت أمّها تتطلع إلى أن ترتبط مستقبلاً بشابّ من أسرة عريقة وغنيّة لتعيش حياة مُرفّهة، وتُقيم معه بشقة في حيّ من أحياء الأثرياء كمنطقة مانهاتن بنيويورك. تتمادى في أحلامها، متمنّية أن يُحالف ابنتها الحظ، وتلتقي بشابّ ميسور الحال، يشتري لها فيلا فارهة بميامي. ترى أنّ قلّة المال من أهمّ الأسباب لضياع الحبّ، وفشل العلاقة بين الرجل والمرأة. لم يكن ستيف

قادراً على شراء هدايا غالية الثمن في أعياد الكريسمس، وفي كلّ عيد ميلاد لجاسمين. كان يُقدّم هدايا بسيطة، كأقراص سي دي لمغنٍّ تُحبُّ سماع أغانيه، أو كتاب لأحد المؤلفين المفضّلين عندها، أو يدعوها إلى العشاء في مطعم متواضع المستوى. كانت أمّها تتهكّم على هداياه. ترشقها بعينين متنمّرتين وتمضي من أمامها. «هل كانت أمّي على علم بموعد قدوم ملك الموت إليها؟ دلائل كثيرة حدثت قبل موتها، تؤكّد أنّها كانت تستشعر قرب أجلها، من ضمنها ما حكته سوزان اليوم. كلها علامات تُثبت صحّة ظنوني!» قالت جاسمين لنفسها.

صعدت إلى الطابق الثاني. دخلت غرفة والدتها. كانت أتربة خفيفة تُغطّي الأرضيّة، وأسطح المناضد والتسريحة. اللحاف ثابت، لم يتحرّك من مكانه فوق السرير. الغرفة مرتّبة على وضعيّة أمّها. أدوية المهدّئات والمنوّمات في مكانها على المنضدة الصغيرة، الملاصقة لسريرها. كانت أمّها قد اعتادت تناولها عقب وفاة والدها. لم تستطع تجاوز ألم فقدانه بسهولة. كانت تبكي عليه كثيراً بعد رحيله. فقدت أيّامها كيلوغرامات من وزنها، وشحب وجهها، وانطفأت نضارته، وغابت الابتسامة عن ثغرها.

اندمل جرح الفراق بمرور السنوات، لكنّ أمّها غدت متقلّبة المزاج. تشتكي من الأرق الذي أصبح يُلازمها كلّ ليلة عندما تأوي إلى فراشها. كانت جاسمين أحياناً تستيقظ في الليل على صوت خطواتها في الطابق السفلي. كانت أمّها تتعمّد ترك الصالة شبه مُظلمة، ما عدا نور الإضاءة العموديّة. كان دخان سجائرها يُعبّئ المكان. تُرهف جاسمين السمع للضوضاء الخافتة التي تحدثها والدتها في الصالة، إلى أن يسلبها النوم مقاومتها، وتغطّ في نوم عميق. تُلاحظ جاسمين عند استيقاظها في الصباح باب غرفة نوم والدتها مفتوحاً على آخره، وضوء «الأباجورة» مشتعلاً، وأمّها مستغرقة في نوم عميق، وقد انحسر الغطاء عن جسدها. تُدير جاسمين نظرها في أرجاء الصالة أثناء نزولها إلى الطابق الأرضي، تلفي منفضة السجائر ممتلئة، تشعر بغصّة في حلقها، وتُهرول خارج المنزل. في الآونة الأخيرة، لم تعد أمّها ترتاد متجرها يوميّاً. أوكلت مهمّة إدارته إلى شابّة صغيرة لا تتجاوز الرابعة والعشرين من عمرها. فتاة بسيطة، مخلصة في عملها، تعمل بهمة ونشاط، وماهرة في التعامل مع الزبائن، ما جعل والدتها تضع ثقتها فيها. نقلت جاسمين قلقها إلى سوزان. أخبرتها عن التغيّرات

التي أصابت والدتها. طمأنتها سوزان، قائلة لها: «جميعنا يا عزيزتي نمرّ بانكسارات عبر مراحل حياتنا تُفقدنا توازننا. أمّك صلبة كالجبل، وستتجاوز ما تمرّ به. أريدكِ أن تعلمي بأنّ علاقة أبيك وأمك لم تكن علاقة عاديّة كسائر الأزواج، كانت مميّزة منذ بدايتها، فقد وجد كلّ منهما نفسه في الآخر».

نظرت إلى صورة والدتها المحشورة داخل إطار صغير من الزجاج الملوّن المصقول. كانت والدتها قد اشترته من مصنع للزجاج تشتهر به مدينة فينيسيا ويُعدّ أحد أشهر معالمها. وقتها كانت جاسمين في الحادية عشرة من عمرها. رغبت أمّها بشدّة في شرائه. لم تفهم يومها سرّ السعادة التي علت وجه أمّها وهي تدسُّ الإطار داخل حقيبة يدها. كان تصرّفها مثل تصرّف طفلة اشترى لها والدها لعبة جديدة. عندما كبرت جاسمين، أدركت أنّ هناك الكثير من الأمور في الحياة يصعب إيجاد تفسيرات منطقيّة لها! وأنَّ على البشر تقبّل بعض الأشياء غير الواضحة المعالم، كي لا يقعوا في دائرة القلق والحيرة. تأمّلت جاسمين صورة والدتها. من الواضح أنّها قديمة، تعود ربّما إلى عقدين من الزمن. تبدو والدتها في أوائل العشرينات من عمرها. عيناها ينبثق منهما بريق أخّاذ. ملامحها تنبض بعنفوان الصبا. خمّنت جاسمين أنّها أُخذت قبل حضورها إلى الدنيا. كانت ملامح والدتها عادية، لكنّ شخصيّتها المتميّزة جعلتها تجذب من حولها. ألقت نظرة سريعة على انعكاس ملامحها في مرآة تسريحة غرفة النوم. لم ترث سوى القليل من أمّها. نفس الشعر الكثيف المموّج المائل للّون البنّي. نفس البشرة القمحية. اختلفتا في بقيّة الملامح. كانت جاسمين تمتلك عينين واسعتين بفصّين بلون قشرة البندق، وشفتين صغيرتين، مكتنزتين. كانت والدتها متوسّطة القامة، جسدها يميل للامتلاء، وخاصّة في منطقة الأرداف. جاسمين كانت تختلف عنها في قامتها الفارعة، إلى جانب نحافة جسدها، وطول ساقيها. كانت أمّها تمتاز بعينين مدوّرتين، بفصّين أسودين لامعين، وخدّين بارزين، وفم مزموم رفيع. يحتار المرء في تحديد لون الشفتين، أحياناً يميلان للحمرة وأحياناً يتحوّلان للّون الأصفر الباهت عندما تُظهر غضبها من شيء ما! قالت لها أمّها بابتسامة مرسومة على شفتيها، قبل وفاتها بشهر، وهي تُشير بيدها إلى خزانة ملابسها: «جاسمين، أعلم بأنّكِ كنتِ تسخرين دوماً من طريقة كتابتي وترين أنّ خطّي سيّئ، لكن في الرفّ العلوي ستجدين مفكّرة زرقاء. بعد موتي أريدك أن تطّلعي على ما فيها بتمعّن،

وأعدكِ بأنّكِ لن تجدي صعوبة في قراءة سطوري. كما أريدك أن تتبرّعي بكافة ملابسي للجمعيات الخيريّة التي أنا عضوة فيها. ستجدين مع المفكّرة ملفّاً يحتوي على قائمة بأسمائها. لا أريدك أن تُبقي على شيء منها. احتفظي فقط بفروي المينك الأبيض الذي اشتراه لي أبوكِ في عيد زواجنا الأخير. كذلك فروي الأسود الذي اشتريته العام الماضي. ستجدين في مكتب والدك، بالدرج العلوي منه، معاملاتي البنكيّة، ومفتاح خزانتي بالبنك، التي أخبّئ فيها مجوهراتي الثمينة. لقد أوصيتُ لك بها. هناك علبة زجاجيّة في الدرج الأوسط بتسريحة غرفة نومي. هذه العلبة أحتفظ فيها بمجوهراتي البسيطة التي أستخدمها يوميّاً. احتفظي بها ولا تُفرّطي بالعلبة الزجاجيّة، لكونها غالية على قلبي». سرحت جاسمين في تفاصيل هذه الواقعة. تذكّرت أنّها صوّبت نظراتها الجزعة نحوها، قائلة: «أمّي، هل تخفين شيئاً عنّي؟ هل أنتِ مريضة؟ لماذا باتت كلمة الموت تتردّد كثيراً على لسانك؟». أطلقت أمّها ضحكة قصيرة، قائلة: «أنا بخير، لا تقلقي. صدّقيني، أنا لا أعرف سبباً لترديدي لها! أنتِ ابنتي الوحيدة، ويجب أن تعرفي كلّ شيء عنّي».

بعد هذه الواقعة بأسبوع واحد، ذهبت والدتها لشراء حاجيات من المتجر القريب من منزلهم. أتت سيّارة مسرعة وصدمتها وهي تعبر الشارع. تطايرت الأغراض من يديها وسقطت على الأرض. الضربة جاءتها في رأسها وتسبّبت بحدوث ارتجاج فيها، إضافة إلى حدوث كُسر في عنقها. أخبر الأطبّاء جاسمين أنّه إن قُدّر لأمّها أن تعيش، فلن يكون باستطاعتها المشي من جديد على قدميها، وأنّها ستقضي بقيّة حياتها على كُرسيّ متحرّك. ظلّت أمّها منوّمة في العناية المركّزة في غيبوبة تامّة. كان الأطبّاء يسمحون لجاسمين بزيارتها في ساعات محدّدة. كانت جاسمين في حالة ذهول. ترفض التصديق أنّ أمّها، بين يوم وليلة، قد أصبحت على هذه الحال. كانت تتساءل في قرارة نفسها «هل من الممكن لو عاشت أمّي، أن ترضخ لما جرى لها؟ هل ستتقبّل أن تعيش بقيّة حياتها عاجزة؟ أسمع عن حالات كثيرة رضخ أصحابها لمصيرهم، وتأقلموا بشجاعة مع واقعهم، وبدأوا حياتهم من جديد، لكنّني موقنة أنّ أمّي، رغم قوّة شخصيتها، وحبّها للتحدّي، لا تنتمي لهذه الفئة. هي امرأة متشبّثة بالحياة، وشغوفة بتفاصيلها، ولا أستبعد أن تلجأ إلى الانتحار للتخلّص من حياتها!».

عادت الذكرى بجاسمين إلى الوراء. حضر في ذهنها مشهد طريف متعلّق بوالدتها، كان قد وقع قبل سنوات ليست بالبعيدة. اضطرّت أمّها أيّامها، عند بلوغها الأربعين، إلى استخدام نظّارة طبيّة للقراءة. اختارتها بعناية شديدة. كانت ماركة معروفة، لها إطار فضّي على شكل بيضوي. وضعتها أمّها حول عينيها، ووقفت تتأمّل نفسها في المرآة. التفتت نحوها قائلة: «ما رأيك يا جاسمين في هيئتي بهذه النظّارة؟ هل أبدو كامرأة عجوز؟ الطبيب يقول إنّ أغلبية الناس، رجالاً ونساءً، يحتاجون إلى وضع نظارات طبيّة للقراءة عند بلوغهم هذا العمر». تتذكّر حينما كانت تذهب مع والدتها إلى المطاعم. كيف كانت أمّها تُمسك بقائمة الطعام، مُحاولة بجهد قراءة ما في القائمة دون استخدام نظارتها. كانت جاسمين تسألها: «لماذا لا تستخدمين نظّارتك لتري القائمة بوضوح؟». تُجيبها بانفعال: «هل تُريدين أن يعلم كلّ من في المطعم، أنّني بلغتُ الأربعين؟ هذا سرّ من أسراري ولن أُفشيه لأحد».

دمعت عينا جاسمين. تمنّت في تلك اللحظة أن تموت أمّها. كانت، على الرغم من حبّها لها وتعلقها الشديد بها، لن تحتمل رؤيتها تتألم، وهي تُراقب بعينيها نظرات الشفقة التي سيرشقها بها الناس. ظلّت أمّها على هذا الوضع ثلاثة أسابيع، إلى أن توقّف قلبها. أخبر الأطبّاء جاسمين بوفاة أمّها. أزاحوا خراطيم الأوكسجين والمحاليل عنها. أخذت تتلفّت حولها في بهو المستشفى. ألفت نفسها وحيدة، مكروبة النفس، ترتعش من حالة الحزن التي سيطرت عليها. هاتفت سوزان. جاءت على عجل. رمت جاسمين نفسها على صدرها. تحرّرت من ثقل الوجع المُطبق على أنفاسها.

عادت جاسمين إلى أرض الواقع. استفاقت من سرحانها. تلفتت حولها. وجدت نفسها في بيتها، واقعة تحت تأثير ذكريات صادمة. تيقّنت بأنّها تعيش أسوأ أيّامها. أحسّت فجأة برغبتها في الترويح عن نفسها. قامت من مكانها. أدخلت قرص السي دي في فتحة الكمبيوتر وأخذت تُغنّي مع مغنّية البوب الشهيرة Britney Spears أغنيتها المفضّلة Baby one more time «حبيبي مرّة أخرى».

2

استيقظت ياسمين أكثر راحة من البارحة. كانت الساعة قرابة التاسعة. ردّدت بصوت خافت: «لديَّ أمور كثيرة يجب عليَّ إنجازها اليوم». فتحت درفتي خزانة ملابس والدتها على مصراعيها. رمت بصرها نحو الرفّ العلويّ. وقع بصرها على المفكّرة الجلديّة الزرقاء اللون. كانت من الحجم المتوسّط. تذكّرت عبارات أمّها الأخيرة عن هذه المفكّرة تحديداً. سحبتها من مكانها. تسرّبت إلى خياشيمها رائحة عطر والدتها، كان عطر شانيل 5 المفضّل لديها. قلّبت صفحات المفكّرة ببطء. السطور مكتوبة بقلم أزرق جافّ، وبلغة إنجليزيّة سليمة لا أخطاء فيها. لاحظت تشطيبات في بعض صفحات المفكّرة «تُرى لماذا محت أمّي هذه الأسطر؟»، تساءلت جاسمين في نفسها. وضعت المفكّرة على سطح المنضدة الملاصق لسرير والدتها. أكملت تعبئة حاجيات أمّها في صناديق ورقيّة. كانت معظم ملابس والدتها عبارة عن أثواب مكوّنة من قطعتين. كانت تُفضّل لبس البنطال والجاكيت عند خروجها لزيارات الأصدقاء. هناك أيضاً عدد من ملابس السهرة الطويلة، المميّزة في تصميمها، التي كانت تُحب أمّها ارتداءها في الحفلات والمناسبات الخاصّة. كان هناك كذلك عدد من أطقم الرياضة التي كانت ترتديها عند ذهابها إلى متجرها، أو عندما تتريّض صباحاً. كانت في أغلب الأوقات، تُرافقها في رياضة الجري صديقتها سوزان. وضعت جاسمين الصناديق في سيّارتها الرانج روفر الحمراء اللون. سلّمت الصناديق لمكتب البريد، بعد أن كتبت عليها أسماء وعناوين الجمعيات الخيريّة، التي اعتادت أمّها التعامل معها. مرّت على متجر والدتها. طمأنتها الشابّة المشرفة على إدارة المتجر، بأنّ الأمور كلّها على خير ما يُرام. عادت إلى المنزل. رمت نفسها على سريرها بكامل ملابسها. شعرت بالإجهاد

والتعب. غفت غفوة قصيرة. تنبّهت على جرس الباب. نزلت مهرولة. لمحت هيئة ستيف من خلف زجاج الشرفة. اتّجهت صوب باب البيت. رمت نفسها على صدره. تركت مشاعرها تتحرّر من أحمال الهمّ. انفجرت بالبكاء. كانت بحاجة إلى حضن صادق تُفرغ فيه قربة أحزانها. أخبرها ستيف بأنّه حاول الاتّصال بها مرّات عدّة. تذكّرت أنّها وضعت هاتفها المحمول على الصامت. ألحَّ عليها أن تخرج معه. أقنعها بأنّها بحاجة إلى الترويح عن نفسها. طلبت منه الانتظار في غرفة المعيشة حتّى تنهي تغيير ملابسها. أخذت حمّاماً سريعاً. لبست فستاناً أبيض من الجيرسيه، بحمالتين رفيعتين، مُظهراً نحافة جسدها، وتكويرة ثدييها الصغيرين. يصل طول الثوب إلى منتصف فخذيها، مبيّناً طول ساقيها. وضعت فوقه جاكيت من الجينز بكمّين طويلين. عقصت شعرها المبلّل بربطة بيضاء، على شكل ذيل حصان. انتعلت حذاءها الأزرق، المرتفع كعبه «إنشين» عن الأرض. نظرت نظرة أخيرة إلى هيئتها في المرآة. كانت جاسمين تكره مساحيق التجميل مثل أمّها. تُفضّل أن تكون على طبيعتها. لاحظت اصفرار وجهها. رمت بصرها على علبة بودرة الخدود الورديّة، الموضوعة على سطح تسريحتها. صبغت صدغيها بالفرشاة لتُداري شحوبها.

ركب ستيف بجانب جاسمين في سيّارتها. اقترح عليها أن يقوما بنزهة في المحيط الأطلسي في أحد قوارب «بوكام». وصلا إلى هناك. شعرت جاسمين بالحماسة. تبدّد كربها. أمسك ستيف بيدها. نزلا إلى القارب. كان ممتلئاً بشباب مُقاربين لسنّهما، لا تزيد أعمارهم عن العشرين. كانت أغنية المغنّية Miley Cyrus تصدح في مُحيط القارب. أخذت جاسمين تُردّد مع الجميع كلمات الأغنية When I look at you. «عندما أنظر إليك». كان ستيف يتأمّل جاسمين، مردّداً معها كلمات الأغنية بسعادة.

مرَّ الوقت سريعاً. قفلا عائدين. ظلّا صامتين طوال الطريق. أشار عليها ستيف بالتوقّف عند إحدى عربات الطعام. تناولا وهما بداخل السيّارة وجبة سريعة من النقانق.

سألها عند وصولهما إلى البيت:

– ماذا ستفعلين غداً؟

– لا أعرف، عليَّ ترتيب الكثير من الأمور. أنتَ تعرف أنّ أمّي كانت تُدير شؤون حياتي من الألف إلى الياء. أنا مشوّشة الفكر قليلاً.

– أعلم عزيزتي. أنا واثق بأنَّ كلّ شيء سينقشع مع مرور الأيّام. أريدك أن تعرفي أنّني بجانبك في أيّ وقت.

رمته بنظرة امتنان. طبعت قبلة سريعة على صدغه. تمنّى ستيف في قرارة نفسه أن تطلب منه المكوث. خاب ظنّه. ودّعها ومضى. كانت تتطلع بشدّة إلى الانفراد بنفسها. أوقفت السيّارة في «كراج» الفيلا. دلفت إلى الداخل. نظرت إلى ساعة يدها. كانت تقترب من الثامنة مساءً. اتّجهت صوب غرفة الجلوس. رمت حقيبة يدها على الأريكة. فتحت باب الشرفة المطلّة على الحديقة. غاصت بمؤخّرتها داخل الكرسيّ المصنوع من الخيزران. سرحت في أحداث الماضي. كانت والدتها تُحبّ الجلوس في هذه الشرفة. حرصت على تزيين جانبيها بعدد من الأصص. زرعت بجوف تربتها بذور شجرة الخزامى. كانت تقول لجاسمين: «زهرة الخزامى تُريح النفس، وتُهدّئ رائحتها الأعصاب». تعوّدت أمّها تناول قهوتها السوداء صباحاً في الشرفة مع حبّتين من البسكويت، أو الدونات المرشوش بالسكّر. اشترى والدها هذا البيت بعد أن نقل مقرّ عمله إلى مدينة بوكاراتون. سجّل المنزل باسم والدتها. عندما تركوا مدينة بوسطن، كانت جاسمين تسير في عامها الرابع. لا تتذكّر شيئاً عن طفولتها في بوسطن. ظلّت صور ذكرياتها هناك مبهمة الملامح! زارت بوسطن مع والدتها عندما بلغت الرابعة عشرة من عمرها. أرتها أمّها المستشفى الذي وُلدت فيه، والمنطقة التي تقع فيها الشقة التي عاشت فيها طفولتها المبكرة. لم تُحبّ جاسمين بوسطن رغم إعجاب الكثيرين بمطاعمها وأسواقها وأحيائها. كانت ميامي بالنسبة لها موطنها الأصلي. هذه المدينة الصاخبة التي لا تنام. تعوّدت أن تذهب إليها مع والدتها في كلّ عطلة أسبوعيّة. في موسم الصيف، كانتا تُقيمان في أحد المنتجعات السياحيّة المنتشرة في منطقة ساوث بيتش. تُمارسان نهاراً السباحة. أحياناً أخرى كانتا تقضيان النهار بالتسكّع في Lincoln Road حيث تنتشر المقاهي والمحالّ التجاريّة. كان بعض الباعة في المحالّ التجاريّة، يُحدّثون والدتها أحياناً باللغة الإسبانيّة. تنفجر بالضحك. تقول لجاسمين بنبرة ضاحكة: «لا تندهشي حبيبتي، يسير في عروقنا دم واحد. لا يُمكن لثمانمئة قرن أن تذهب هباءً». كانت تعابير الدهشة تعلو وجه جاسمين، تسأل والدتها عن سرّ هذه العبارات الغريبة التي تتفوّه بها! تُجيبها بنبرة خبث: «لا تعبئي بما أقول! اعتبريها مُجرّد دُعابة سخيفة».

كان الهواء يعبث في الخارج، مُحرّكاً أغصان الأشجار، كأنَّ حواراً هامساً يجري في ما بينها، كأنّها تشتكي لبعضها من تقلبات الطبيعة وقسوتها. تخيّلت جاسمين أنّ هناك غرباء يحومون حول البيت. تملّكها الخوف. قامت من مكانها. أغلقت نوافذ الشرفة جيداً. اعتلت درجات الطابق الثاني. دخلت مُهرولة غرفة والدتها. رمت بصرها نحو جدار الغرفة. كانت هناك صورة كبيرة بإطار خشبي بنّي، معلّقة على الحائط، تعود لراقصة الباليه الروسيّة الشهيرة Maya Plisetskaya، من أعظم راقصات القرن العشرين كما يُقال عنها. وُلدت في موسكو لعائلة يهوديّة. تُوفّيت بعمر التاسعة والثمانين. سرحت من جديد في أمّها. كانت أمنية حياتها أن تُصبح جاسمين راقصة باليه. تقول لصديقتها سوزان ولمعة الفرح تطلُّ من عينيها: «انظري يا سوزان، ألا توافقينني الرأي في أنّ جاسمين تملك قواماً رائعاً، يُؤهّلها لأن تُصبح راقصة باليه متميّزة!». تبتسم سوزان. تؤمئ برأسها مؤيّدة كلام صديقتها. سجّلتها أمّها في عمر السابعة، في مدرسة باليه بمدينة بوكاراتون. ظلّت جاسمين تمشي على أصابع قدميها إلى سنّ الثانية عشرة. كانت معلمة الرقص تقول لها: «ينتظرك مستقبل كبير يا جاسمين». خيّبت جاسمين آمال أمّها وتوقّعات معلمتها. عندما وصلت إلى سنّ الرابعة عشرة، بدأت تفقد حماستها. صارت تتغيّب عن التدريبات. أعلنت لأمّها رغبتها في الانسحاب، والتوقّف عن حضور حصص الرقص. لمحت لحظتها الدموع تتراقص في عيني والدتها. قالت لها بنبرة تقطر خيبة: «لقد تعلّمتُ العزف على البيانو من أجلك. كان من ضمن أمنياتي، أن ترقصي على نغمات عزفي يوماً ما. يبدو أنّني تماديتُ في حلمي. كنتُ أتمنّى أن تُحققيه من أجلي». أيقنت جاسمين لحظتها أنّها هدمت لأمّها حلمها. سرحت بفكرها بعيداً «هل الحلم مرتبط بلحظة خروجنا من بطون أمّهاتنا إلى الدنيا، أم نحن من يحوك خيوطه؟ هل نستطيع وأد أحلامنا، كي لا تتوالد وتنتشر داخل أذهاننا؟ هل الحلم نقطة الانطلاق نحو بوّابة المستقبل؟ هل الحلم هو اختصار لمعنى الوجود؟ هل تعمّدتُ أن أقسو على أمّي بتدمير أمنيتها، لأثبت لها أنّني قادرة على أن أحمي أحلامي الخاصّة وأحملها بعيداً عنها؟»، أخذت جاسمين تتساءل في قرارة نفسها. حضرت عبارة أمّها في خاطرها «عندما أراكِ ترقصين، أشعر كأنّكِ حوريّة من حوريّات الجنّة، أخطأت طريقها ونزلت على الأرض برفقة أمّنا حوّاء». حرصت أمّها على الاحتفاظ بملابس رقص جاسمين، في رفّ من

رفوف خزانة ملابسها. جواربها البيضاء الطويلة. التنّورة الورديّة المصنوعة من التل. العقدة البيضاء التي كانت تعقص بها شعر ابنتها للخلف. لم تحشر جاسمين هذه الأشياء بالصناديق مع زمرة أغراض أمّها التي تخلّصت منها. قرّرت الاحتفاظ بها لنفسها. لمحت جاسمين جهاز «الغرامافون» الموضوع بركن في غرفة والدتها. كان من القطع الأثريّة النادرة. كان صاحبه قد تعرّض للإفلاس، وتمَّ بيع مقتنيات منزله ببوسطن في المزاد العلني. قرأت أمّها إعلان البيع على الإنترنت. أرسلت إلى شركة المزاد إيميلاً تُبدي رغبتها في شرائه. كان ثمنه معقولاً مقارنة بقيمته التاريخيّة. تتذكّر جاسمين أنّ أمّها، عند تسلّمه، كادت تطير من الفرحة، كأنّها عثرت على كنز ثمين. أخذت تدور في أرجاء البيت، لتجد مكاناً مناسباً له. استقرّ رأيها على وضعه في غرفة نومها. بحثت جاسمين عن أيّ أسطوانة خاصّة بالموسيقار الروسي تشايكوفسكي. اعتادت أمّها الاستماع لموسيقاه بين آن وآخر. أدارت أسطوانة «بحيرة البجع». وقفت على أصابع قدميها. رقصت على نغمات السيمفونيّة. اكتشفت أنّها لا تزال تتذكّر بعض الخطوات. أحسّت بالإجهاد. بدأت تلهث. رمت عجيزتها على حافة السرير. لمحت مفكّرة والدتها. أمسكتها بيدها. نهضت من مكانها. ذهبت إلى غرفتها. لبست منامتها القطنيّة ذات اللون الزهري. مدّدت ساقيها. أسندت جذعها العلوي إلى ظهر مخدعها. أمسكت بالمفكّرة وذهنها شارد. سقطت في حجرها صورة فوتوغرافيّة. استغربت الأمر. لم تكن قد لاحظت هذه الصورة من قبل. تفحّصتها بفضول. كانت لرجل في منتصف العشرينات من عمره. وسيم الطلّة. ملامحه مرسومة فيها الطيبة. عيناه واسعتان، ببؤبؤين أسودين، يشعُّ من حدقتيهما بريق الذكاء. شعره ممشّط للخلف كأبطال أفلام هوليوود في فترة السبعينيات. يرتدي قميصاً أبيض مُقلّماً بخطوط سوداء. فوق القميص وضع جاكيت سوداء بياقة عريضة. تأمّلتها بإعجاب، قائلة: «تُرى من هذا الرجل الوسيم؟». أدارت الصورة. كان مكتوباً على ظهرها، بقلم حبر أخضر، وبأحرف عربيّة أنيقة «إلى غاليتي حياة. التوقيع: خطيبك... طارق الفلاح». أخذت جاسمين تُقلّب الصورة بين يديها. ارتسمت تعابير الحيرة على صفحة وجهها. تساءلت بقرارة نفسها «يبدو أنّها أحرف عربيّة! من الواضح أنّها عبارة إهداء من هذا الرجل لامرأة معيّنة! تُرى ما علاقة أمّي بهذه الصورة؟ هل من الممكن أنّ هذا الرجل، كان يقصد أمّي بإهدائه؟». ارتأت أن تستعين لاحقاً

بموقع غوغل لترجمة العبارة. وضعت الصورة بجانبها. أمسكت المفكّرة بين يديها. بدأت تجري بعينيها خلف السطور.

الحلم جزء من كينونتنا البشريّة، لا يتلاشى إلّا مع توقّف نبضات قلوبنا. يظلُّ الحلم نقطة الانطلاق نحو بوّابة الحياة. الحلم كطعم المنّ والسلوى، يُحلّي ريقنا، ويدفع سُكّره الدم في شراييننا. الحلم نبع وجودنا.

1

لا أعرف من أين أبدأ قصّتي! حكايتي مثل حكاية أيّ بنت. أحلام صغيرة وبسيطة، نسجتها بأناملي الفتيّة. تنحصر في النجاح بدراستي، والالتقاء بفارس أحلامي، وإنجاب أطفال يملؤون أيّامي. حياتي لم تستمرّ وتيرتها كغيري من الفتيات. كانت مليئة بالأحداث المثيرة وتخللتها الكثير من المواقف المحزنة. سأبدأ من نقطة البداية. نشأت في أسرة متوسّطة الحال، وفي بيئة محافظة كأغلبية الأسر السعودية في ذلك الوقت. كانت حصيلة والديَّ من الأبناء ثلاثة. كنتُ الكُبرى. خرجتُ إلى الدنيا عام 1970 م. بعدي بعامين حملت أمّي بأختي يسرا. اكتملت فرحة أبي بإنجاب أمّي لأخي ياسين، الولد الذي انتظر قدومه طويلاً. كان يقول لأقاربنا إنّ البنت لديه كالولد، لكنّ أبي كان يكذب! ملامحه يوم خرجت الممرّضة لتقول له إنّ أمّي أنجبت ولداً كانت تنضح بالسعادة. ركع لحظتها على أرضيّة المستشفى، والدموع تنهمر من عينيه، رافعاً يديه إلى السماء قائلاً: «الحمد والشكر لك يا ربّ أنّكَ استجبتَ لدعائي». كنتُ أيّامها في الخامسة من عمري. لم أعِ وقتها لماذا الولد في نظر الأب الشرقي، يُمثّل امتداداً له، والبنت لا تملك ذلك! شعرتُ يومها بالغيظ وبالغبن. لم أعرف حينها سبب هذا الشعور الغريب! لم أرَ نفسي يوماً أقلّ قدراً من أخي، بل كنتُ أجدني متميّزة عنه في كلّ شيء. الجميع كان يُثني على هدوئي واتّزان عقلي منذ صغري. لا أذكر أنّني حصلتُ طوال فترة دراستي على علامات متدنّية، أو أرسلت إدارة المدرسة ملاحظات سلبيّة على سلوكي في الصفّ. علاقتي جيّدة بمعلماتي وزميلاتي.

وُلد أخي ياسين نهاية شهر مارس عام 1975، في نفس الشهر والسنة التي قُتل فيها الملك فيصل على يد ابن أخيه فيصل بن مساعد. تضاربت الآراء حول

سبب مقتله. هناك من كان يقول بأنّ أميركا هي الرأس المُدبّر لمقتله، بسبب استخدامه سلاح النفط في حرب 1973م. وهناك من كان يُلمّح إلى أنّ إسرائيل كان لها دور في مقتله، لكونه أقسم على الصلاة في المسجد الأقصى. آخرون كانوا مقتنعين بأنّ الأمر خالٍ من أيّ مؤامرات خارجيّة، وأنّ الأمير القاتل كان دافعه انتقاماً شخصيّاً، ردّاً على اغتيال أخيه خالد. كان الأمير خالد هو من قاد الاضطرابات التي وقعت في منتصف الستينيات، والتي أدّت وقتها إلى مقتله على أيدي قوّات الأمن، أثناء محاولته ومن معه، اقتحام مبنى التلفزيون. في كلّ الأحوال كانت سنة أحزان على السعوديين كافة. الأجواء خيّم عليها الأسى على نهاية مُفجعة لقائد حكيم. ارتأى أبي أيّامها عدم إقامة حفل عشاء احتفاءً بقدوم أخي. أيّدته أمّي في رأيه. كان أبي يأتي على سيرته كثيراً. يرى أنّه كان يتمتّع بصفات الحاكم القويّ المستنير.

ظهرت على أخي بوادر مرض التوحّد عند وصوله لسن الثالثة. اكتشف والداي هذا الأمر متأخّراً. في البداية، لم تعر أمّي اهتماماً لتأخّر أخي عن الكلام. كان بالنسبة لها أمراً طبيعيّاً يحدث لبعض الأطفال، لكنّها لاحظت مع مرور الوقت ميل ياسين للعزلة، ورفضه مشاركة أطفال العائلة في اللعب. أظهرت قلقها لأبي. أخذاه إلى طبيب أطفال. شكَّ في الأمر. اقترح عليهما الذهاب إلى استشاري متخصّص في حالات التوحّد. سأل الطبيب أبي أسئلة كثيرة من ضمنها إن كان تعرّض لنقص في الأوكسجين عند ولادته، أو إن كانت تُوجد في العائلة حالات مُشابهة لاضطراب التوحّد كما يُطلقون عليه! أكّد له والدي أنّ تاريخ العائلة خالٍ منه تماماً. طمأن الطبيب أبي بأنّ هذا الاضطراب قد يحدث بعض الأحيان بنحو مُفاجئ. أخبره أنّ حالة ياسين بسيطة مُقارنة بغيره ممّن وصلوا إلى مراحل متأخرة. أكّد له أنّ بإمكان ياسين العيش بطريقة طبيعية، ما دام يجد الرعاية والحبّ الكافيين في البيت وممّن حوله. نبّهه الطبيب إلى وجوب دمجه مع أطفال مُقاربين لعمره. طمأنه بأنّ مرضى التوحّد كثير منهم يُصبحون في كبرهم عباقرة، وأنّهم شديدو الذكاء. كانت صدمة أبي كبيرة. لم يتوقّع أن يُصاب ابنه الذي تمنّى وجوده، بهذا المرض. كان أبي ذا شخصيّة صارمة، عنيدة، وأعتقد أنّني ورثتُ هذه الصفات منه. استجمع قوّته مُقرّراً تجاوز هذه المحنة. لا أعرف لماذا وقتها توهّمتُ أنّ الله أراد أن يقتصَّ من أبي، لأنّه لم يرضَ بعطيّته! كان يُردّد لمن حوله، لا أريد أن تنقطع

ذرّيتي من الدنيا بموتي. البنات لا يستطعنَ تخليد أسماء آبائهنَّ. كلمة توحّد صارت تتردّد كثيراً في بيتنا. لم أفهم في ذلك الوقت معناها. كلّ الذي استنتجته أنّ أخي مُصاب بمرض ما! ولا أعرف هل هو اسم لمرض كالأنفلونزا، أم مرض خطر معدٍ! صبَّ والداي رعايتهما على ياسين. جعلاه محور تفكيرهما. لم يكن أخي ياسين قد دخل بعد مرحلة الدراسة الابتدائيّة. اقترحت وقتها إدارة مدرسة الحضانة على أبي أخذه إلى أحد مراكز التوحّد. رفض أبي بشدّة. تمسّك بموقفه. دخل في نقاش حادّ مع مديرة المدرسة. قرّر إخراجه منها، وإبقاء في البيت لحين بلوغه السنّ القانونية لدخول المدرسة. أحضر له اختصاصيّاً كان يزوره يومين في البيت، بعطلة نهاية الأسبوع. كان يُساعد ياسين باستخدام العلاج السلوكي والتعليمي والمعرفي معه، وكان أبي واثقاً بأنّ ياسين يستطيع التأقلم مع محيطه. هذه الأمور التي جرت، دفعتني بدون أن أدري، إلى التعلّق بأخي. نسيتُ تفضيل أبي لأخي علينا. أحببته كثيراً. كنتُ أجيد التعامل معه رغم صغر سنّي وقتها. أقضي وقت فراغي بمشاركته اللعب. كان يدور في البيت بحثاً عنّي إذا التهيتُ عنه. أتذكّر أنّه كانت لديه لعبة، عبارة عن سيّارة صفراء صغيرة، كان شديد التعلّق بها. يصرخ إن أمسكها أحد غيره، مُعبّراً عن غضبه بضرب رأسه في الحائط أو بحافة السرير. كان قلبي ينفطر عليه وأشفق على حاله، وأهرع إليه لآخذه في أحضاني حتّى تهدأ انفعالاته.

بين آونة وأخرى، كنتُ أطلب من أبي أن يصطحبني إلى محلّ الألعاب. أشتري لياسين من مصروفي الخاصّ لعبة جديدة. عند عودتي إلى البيت أضعها أمامه. ينظر إليها بفرحة. يفتر ثغره عن ابتسامة جميلة. بعدها بسنوات طويلة مللتُ من عدّها، قابلتُ أخي ياسين. كان ذلك أثناء قيامي برحلة سياحيّة للندن، برفقة ابنتي جاسمين. كان ضمن هواياتي الحرص على مشاهدة معارض الفنّ التشكيلي والاستفسار عن أيّ مناسبات فنيّة، عند زيارتي لأيّ بلد. كنتُ عاشقة لكافة فروع الفنّ التشكيلي وتوجّهاته. يومها كان المعرض يضمُّ لوحات لعدد من الفنّانين العرب والأوروبيين. شدّتني واحدة من اللوحات التجريديّة. بهرتني ألوانها وخطوطها دون أن أدري من الذي رسمها! رميتُ بصري صوب البطاقة الصغيرة الموضوعة بجانب اللوحة. دفعني الفضول لمعرفة اسم الفنان. جحظت عيناي. شعرتُ بقلبي يدقُّ دقّات متلاحقة. كانت اللوحة مدوّنة باسم أخي ياسين. دارت عيناي في أرجاء القاعة. لمحتُ ياسين يقف بجانب واحدة

من لوحاته، مُبتسماً لكاميرات المصوّرين. تقف بجانبه امرأة شابّة. عرفته على الفور. تقاسيم وجهه لم تتغيّر كثيراً. نفس العينان الناعستان والجفون المرتخية، والفم الرفيع. اختلف عليَّ مظهر رجولته الفتيّة، واللحية المخروطة. التقت عينانا في لحظة خاطفة. خُيّل لي أنّه سرح قليلاً في ملامح وجهي، قبل أن يُشيح بعينيه عنّي. لا أعرف إن كان تقصّد تجاهلي، أم أنّه بالفعل لم يعرفني! كنتُ قد قرأت أنّ المصابين بالتوحّد ذاكرتهم قويّة، لا ينسون الأشخاص ولا الأشياء التي تمرّ بهم. كان ياسين لحظتها مشغولاً بالتحدّث مع سيدة أبدت إعجابها بلوحاته. تلاحقت صور ذكرياتي داخل عقلي. كنتُ أوّل من لاحظ انجذابه للألوان. اشتريتُ له أيّامها علبة من الأقلام الملوّنة، ولفّة من الورق الأبيض تشبّث بها فرحاً. كان يُمسك بالأقلام الملوّنة واحداً تلو الآخر، ويرسم دوائر متشابكة على الورق. رآني أبي مرّة أُساعد ياسين في رسم شجرة. نظر إليّ بفرح. مسّد على شعري قائلاً: «أنتِ خُلقتِ لتكوني أمّاً يا حياة». لا أعرف إن كنتُ بالفعل كذلك، أم كان يُريد التعبير عن امتنانه لما أقوم به تجاه أخي!

تداخلت مشاعري لحظة رأيتُ ياسين. تنازعتني الرغبة في ضمّه لصدري مُعبّرة له عن فرحتي الغامرة بلقائه، والابتعاد سريعاً عن المكان. ماذا كنتُ سأقول له؟ هل أقرُّ أمامه أنّني رميتُ بلا رحمة صورة عائلتي خلف ظهري، وشاهدتها وهي تتحطّم إلى مئات القطع الصغيرة؟ كانت جداول الماضي قد بدأت تنساب بمجرى فكري، وأنا أحاول بشدّة إيقاف جريانها ولو للحظات قليلة. خرجتُ مهرولة دون أن ألتفت ورائي. أشرتُ لسيّارة أجرة. أعطيت السائق عنوان الفندق الذي كنتُ أنزل فيه. طوال الطريق كان فكري شارداً، وأمواج ذكرياتي تتلاطم داخل عقلي. تنبّهتُ على صوت السائق يُخبرني بوصولنا إلى الفندق. نفحته أجرته، ودلفتُ إلى الدخل. لم أنم تلك الليلة. ظلَّ الأرق يُصاحبني إلى أن طلع النهار. رؤية ياسين حرّكت بحيرة الماضي الراكدة. أعلم بأنّنا جميعاً لا نملك آلة زمن تُعيدنا إلى فترات جميلة من ماضينا، وأنّ الحاضر عندما نعيشه بكلّ تفاصيله، يُلهينا عن تقليب صور الأمس. أتذكّر أنّني شاهدتُ فيلماً لا أذكر عنوانه، عن رجل قُتلت زوجته أمام عينيه في الطريق على يد سارق. أراد اللصّ انتزاع خاتم زواجها من يدها. أثناء عراك الزوج مع السارق، تنطلق رصاصة فتُصيب الزوجة وتموت على الفور. يخترع الزوج آلة

الزمن كي يعود إلى الماضي، ويُحاول إنقاذ زوجته. في كلّ مرّة يعود فيها الزوج إلى زمن الواقعة، يتكرّر موت الزوجة، ولكن بطرق مُختلفة. هكذا، يُوقن الزوج المكلوم على فقدان زوجته، أنّ الماضي مثل أوراق الشجر اليابسة، ما إن تسقط على الأرض، حتّى تتفتّت، وتُصبح عودتها إلى أغصانها مُستحيلة.

بعد رجوعنا إلى بوكاراتون، تقصّيتُ عن أخي عبر غوغل. اكتشفتُ أنّ له صفحة على الفايسبوك. أخذتُ أتلصّص على صفحته. عرفتُ أنّه أصبح فنّاناً تشكيليّاً معروفاً. تزوّج بفنّانة تشكيليّة التقاها في أحد المعارض بجدّة، ولديه ولدان لم يتجاوز أكبرهما الثامنة من العمر. رأيت في صفحته أيضاً صورة المرأة التي كانت برفقته في المعرض. كان واضحاً أنّها نفسها زوجته.

كنتُ في التاسعة من عمري، حين قامت حركة جهيمان عام 1979 م. هذه الحركة المتطرّفة التي أرجعتنا سنين إلى الوراء، كما كان أبي يُردّد دوماً. أفرزت هذه الحركة عهداً جديداً، أطلق عليه الشيوخ عهد الصحوة. كلّ ما أتذكّره عن تلك الفترة من حياتي، الانقلاب الذي أصاب المجتمع الجدّاوي الذي كنتُ أعيش فيه. وقتها أوقف بثّ أغاني الفنّانات في التلفزيون السعودي. مُنعت إقامة الحفلات المدرسيّة، وحُرّم سماع الموسيقى فيها. جُرّم الاختلاط في الأماكن العامة، وجرى تطبيق عقوبة الجلد في حق مُخالفيها. أقفلت كلّ المحالّ في أوقات الصلوات الخمس. شهد جيلنا ارتفاع نغمة التطرّف الفكري، بكلّ تبعاته وسلبياته. كانت إدارة مدرستي تفرض علينا تغطية وجوهنا عند دخول المدرسة، ولحظة خروجنا منها. التعرّض للعقاب، ومُصادرة أيّ كتاب يُضبط مع أيّ طالبة، مُتّهم مؤلفه بالدعوة من خلال كتاباته إلى الانحلال الأخلاقي، والتشجيع على الرذيلة، كالأديب إحسان عبد القدوس، ونجيب محفوظ وغيرهما. مُنع تدريس مادّة الفلسفة في المدارس، واعتُبرت كتب الفلسفة زندقة، يُحاسب حساباً عسيراً من يتطرّق إلى أيٍّ من مدارسها الفلسفيّة في محفل خاصّ أو عامّ. كانت قائمة الفلاسفة الممنوع التطرّق إلى أسمائهم ومؤلفاتهم طويلة. كان من ضمن هؤلاء، الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه، المعروف بكتاباته عن الخير والشرّ، وعن نهاية الإيمان في المجتمعات الحديثة. كان هناك أيضاً الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت، أبو الفلسفة الحديثة كما يُطلقون عليه، وصاحب العبارة الشهيرة «أنا أُفكّر إذن أنا موجود». كان هناك غيرهما ممّن أسهموا في إثراء البشرية. تمّت بتلك

المرحلة، تصفية المكتبات المدرسيّة من الكتب الأدبيّة وغيرها من الكتب التراثيّة، والإبقاء فقط على الكتب الدينيّة. والداي كانا أوفر حظّاً من جيلنا. شبّا في عصر الإسلام المعتدل، وتمتّعا بمناخ الانفتاح الذي كان الجميع يعيش فيه، قبل أن تُجهضه أفكار جهيمان وأتباعه. انتشرت ظاهرة النقاب الذي كان من النادر مشاهدته في المجتمع الجدّاوي. كانت أمّي تترحّم دوماً على ذلك الزمن المضيء الذي عاشت فيه، مُظهرة تبرّمها من كمّ التغيير الذي أصاب المجتمع السعودي، والحجازي تحديداً.

كنتُ، مثل كلّ البشر، تُرهقني رائحة الذكريات بحلوها ومرّها. كانت حياتنا داخل البيت هادئة. ما زالت تحضرني صور جميلة من طفولتي. أُدرك أنّنا جميعاً نشتاق للطعام الذي كانت تصنعه لنا أمّهاتنا في صغرنا. نحنُّ لأحضان أحبابنا ولرائحة جلودهم بعد أن يُفرّقنا الزمن عنهم، بالرحيل قسراً أو طوعاً. أتذكّر أيّام الجُمَع. كانت عند أبي مُقدّسة. اعتياده الاستيقاظ عند الفجر، ليلحق بصلاة الجماعة في مسجد الحيّ. يركب بعدها سيّارته، ويذهب إلى وسط البلد، حيث تنتشر الأسواق الشعبيّة. يشتري من دكّان الغامدي الشهير، الفول، والتمييز [1]، وكذلك المطبّق [2] والمعصوب [3].

تُوقظنا أمّي عند الثامنة صباحاً بعد أن تنهي تجهيز مائدة الإفطار. كنّا نتذمّر من الاستيقاظ مُبكراً في يوم عطلتنا الأسبوعيّة. تُنبّهنا أمّي بأنّ أبي يحرص على أن نُشاركه طعام الإفطار. تخترق خياشيمي رائحة طبق الفول، الذي كانت أمّي ترمي بوسطه جمرة مشتعلة كي تُضفي على طعمه رائحة الشواء، وتُغرقه بزيت الزيتون والليمون، ورائحة طبق المقليّة [4] البلدي.

أتذكّر عندما كان أبي يشتري لنا الحلوى من محلّ الحلويات الشهير «مونتانا»، الواقع في حيّ البغداديّة. كيف كنّا أنا وأختي يسرا نهرع نحوه، ونخطف حلوى «الكلير» و«الماكرون» من يده ثمّ نجري من أمامه، وهو يضحك ملء شدقيه. أتذكّر عندما كان يصحبنا في العطل الأسبوعية وفي إجازات الأعياد إلى مدينة الألعاب «لونا بارك» التي كانت تقع في شارع فلسطين. يتركنا نُجرّب كلّ الألعاب هناك. كيف كنّا نلحُّ عليه ليأخذنا إلى حدائق «كيلو عشرة» لنلهو فيها. في إجازة عيد الفطر، كنّا نستعطفه ليستأجر لنا شاليه على البحر بـ«كبائن عطا الله»، نقضي فيها أيّام العيد الثلاثة. أتذكّر كيف كنّا نذهب بعد انقضاء العيد إلى محالّ الألعاب، ونشتري بـ«عيديّة» العيد التي

جمعناها من أبي وأعمامنا وأقاربنا الألعاب التي تروقنا. عندما دخلنا مرحلة المراهقة، لم نعد أنا ويسرا أختي، نُبدّد «عيديتنا» في شراء اللعب. أصبحت لنا مطالب أخرى، كشراء حُليّ ذهبيّة أو مساحيق تجميل خفيفة، كانت أمّي تغضّ الطرف، وتسمح لنا باقتنائها، لكن في حدود ما يتلاءم مع أعمارنا.

كنتُ الأقرب شبهاً لملامح أمّي. كانت أختي وأخي متقاربين في ملامح وجهيهما. أعتقد أنّ جيناتهما انتقلت إليهما من الأجداد. ورثتُ عن أمّي اتّزانها، وذكاءها المفرط، وسرعة بديهتها، وروحها المحبّة للمرح والدعابة، لكنّني لم آخذ منها حِلمها، ولا سعة صدرها. أبي كان طيّب المعشر، كريماً، لكنّه كان سريع الغضب، ويتّسم بالعصبيّة. كانت أمّي قادرة على تبديد غضبه، وتضييق مساحة أيّ خلاف يشبُّ بينهما بمهارة وصبر. كان أبي، على الرغم من حدّة طبعه، يؤمن بأنّ العلاقة بين الزوجين تقوم على المودّة والرحمة. هو لم يكن استثنائيّاً في مسلكه هذا، فأغلبية الأسر الحجازيّة في تلك المرحلة الزمنيّة كانت مترابطة، وكلّ ربّ أسرة كان يتفانى من أجل إسعاد أهل بيته.

أتاني الحيض لأول مرّة في سنّ متأخرة، كنتُ في الرابعة عشرة من عمري. كلّ قريناتي سبقنني إلى الولوج في دنيا الأنوثة بعام أو بعامين. كنتُ أنتظر قدومه بفارغ الصبر. الغريب أنّ أختي يسرا رأت دم الحيض في الليلة ذاتها. جلسنا طوال الليل نتهامس ونضحك. عند الصباح أخبرنا أمّنا بحضور الزائر الذي تنتظره كلّ أمّ لتطمئنّ على مستقبل بناتها. لاحت تعابير الارتياح على وجهها. قبّلت كلّ منّا على وجنتيها، وأعطتنا كيساً من أكياس حفاضاتها القطنيّة، لحين شراء المزيد منها من أجلنا. أرادت شرح طريقة وضعها لنا. أخبرناها بأنّنا لسنا بحاجة لأخذ تعليمات عن كيفيّة وضعها. ابتعدت وهي تهزُّ رأسها، قائلة: «جيل آخر زمن». كنّا قد سمعنا من صديقاتنا في المدرسة تفاصيل وافية عن الدورة الشهريّة. بعضهنَّ كانت تستمرّ معهنَّ لأسبوع، وبعضهنَّ كانت تتوقّف بعد أربعة أيّام. حكينَ لنا بالتفصيل عن التغييرات التي لحقت بهنَّ بعد ولوجهنَّ دنيا الأنوثة. عن دوران أثدائهن، وبروز مؤخّراتهن. كنّ يتحدّثن بحماسة عن مشاعر الشبق التي غدت تنتابهنَّ تجاه الجنس الذكوري، والشهوة التي صارت تعتمل في دواخلهنَّ، والتي تزداد إلحاحاً مع قُرب زيارة العادة الشهريّة.

كانت لي وليسرا صديقة مشتركة اسمها عواطف، في نفس سنّي ومرحلتي الدراسيّة. نجحتُ وانتقلت إلى الصفّ الأول الثانوي، ثمّ الثاني الثانوي، وتكرّر رسوب عواطف لعامين متتاليين في الصفّ الثالث الإعدادي، لتلحق بها يسرا وتُصبحا في نفس المرحلة الدراسيّة. كنتُ مندهشة من رسوب عواطف المتكرّر. لم تكن عواطف فتاة غبيّة، بل كانت تتمتّع بذكاء وفطنة. كانت مقبولة الشكل. أبرز ما يُميّزها ابتسامتها الجذّابة، التي تُظهر أسنانها البيضاء المرصوصة بعناية، وإن كنّا نادراً ما نلمحها. نشأت علاقة صداقة بين عواطف ويسرا بحكم زمالتهما في نفس الصف، وتوطّدت مع مرور الأيّام. صارت تزورنا كثيراً في البيت. تتشاطر مع يسرا الدروس بغرفة المعيشة. أحياناً كثيرة كانت أمّي تستبقيها للعشاء. وأحياناً أخرى كانت تمضي نهار الجمعة معنا. حكت لي وليسرا أنّ جوّ البيت المضطرب الذي تعيش فيه، هو سبب فشلها في دراستها. كانت عواطف أصغر إخوتها. تفصلها عشر سنوات عن أخيها الكبير. كانت متفوّقة في دراستها. الأولى دوماً في صفّها. قبل ثلاثة أعوام، تزوّج والدها على والدتها. اقترن بفتاة صغيرة لم تتجاوز الخامسة عشرة من عمرها. والدتها لم تتقبّل الأمر. كانت صدمتها في والد أبنائها كبيرة. استعرت نار الغيرة في قلبها. أصبح البيت جحيماً لا يُطاق. قلّل والدها من زيارته لهم، تفادياً للمشاكل. أصبح يمضي جلّ وقته في البيت الثاني، مُكتفياً بإرسال مصروفاتهم الشهريّة. كانت تقول لنا بنبرة متأسّية: «منذ تزوّج أبي بأخرى، أصبحت أمّي تصبُّ سخطها وغضبها عليَّ، وعلى إخوتي. لم تعد أمّي التي أعرفها. فارقتها ابتسامتها. أصابها داء السكّري، والضغط. أصبحت امرأة تعيسة. تقضي أغلب وقتها حبيسة غرفتها. لم تعد تُطيق رؤيتنا. لم تعد تهتمّ بشؤوننا. دمّرها كامرأة. أنا حزينة من أجلها. بداخلي غضب عارم على أبي. أمّي كانت مرحة، حنونة، وفوق كلّ هذا لم تزل شابّة وجميلة. لا أعرف لماذا يخون الرجال زوجاتهم، ولماذا يرغبون في غيرهنّ؟ هل بسبب علّة فيهم، أم في زوجاتهم؟ لماذا لا يكون حبّ الأبناء رادعاً للرجل، حين يُفكّر في الارتباط بأخرى، أم أن التضحية مُقتصرة على المرأة دون الرجل؟ الرجل سبب شقاء المرأة. لن أتزوّج أبداً. لن أكون صورة مُكرّرة من أمّي. لا أريد أن ألقى نفس مصيرها». كنّا نكتفي بتهدئتها وتطييب خاطرها وبتشجيعها على المذاكرة. كانت الضغوط النفسيّة أكبر من طاقة احتمال عواطف. جاءت

إلى بيتنا ذات يوم باكية. أخبرتنا بأنّ والدتها دخلت في غيبوبة سكّر، بسبب إهمالها تناول أدويتها! كأنّها أختارت أن تموت. انقطعت عواطف أسبوعاً عن المدرسة. هاتفتها يسرا في منزل أهلها لتطمئنّ عليها. أخبرتها وهي تجهش بالبكاء أنّ والدتها قد تُوفّيت بعد دخولها المستشفى بأيّام قليلة. بعد رحيل والدتها زارتنا مرّة واحدة. كان وجهها مُصفرّاً، وعيناها غائرتين، وشعرها مبعثراً، وجسدها ازداد نحافة. حكت أنّ أخاها الأكبر لم يستطع تجاوز محنته. ترك دراسته الجامعيّة، وقرّر السفر إلى المدينة المنوّرة، بعدما وجد عملاً هناك. استأجر شقة صغيرة للعيش فيها. أخبرها قبل سفره، أنّه لم يعد باستطاعته تحمّل هذا الجوّ الخانق، وأنّه أصبح لا يُطيق النظر في وجه والده، لكونه السبب في موت أمّهم. خالجها شعور بأنّ أخاها تخلّى عنها. ابتعاده فاقم من أزمتها. لم تُكمل دراستها ذلك العام. هربت من البيت.

لم يعرف أبوها مصيرها. بلّغ عن غيابها لكن سدىً. حزنت أمّي عليها كثيراً. خرجت شائعات كثيرة عنها. هناك من يقول إنّها وُجدت مذبوحة من الوريد للوريد في حيّ الروس، بعدما اغتُصبت. هناك من يؤكّد أنّ الشرطة قبضت عليها في شقة مشبوهة، مع عدد من الفتيان والفتيات، وأنّ أباها رفض تسلّمها، مُبرّراً موقفه القاسي برغبته في معاقبتها على فعلتها الشائنة، وأنّها لطّخت اسم عائلتها، فوُضعت إثر ذلك في دار الرعاية المخصّصة للفتيات القاصرات اللائي اقترفنَ جُرماً. وهناك من يُقسم أنّها نجحت في الهرب خارج البلاد مع فتى غير سعودي كانت على علاقة معه. كانت أمّي كلما تناهت إلى سمعها هذه الأقاويل، أو كلّما جاء اسمها صدفة على لساننا تقول: «الله يستر على بناتي، ويحفظ هذه البنت ويردّها سالمة لأهلها».

بدأت تقاسيم جسدي تتدوّر، وملامح وجهي يُعاد تشكيلها. كنتُ أحسد يسرا. انتصب عودها، وبرز نهداها، وغدا وجهها أكثر جمالاً وجاذبيّة. ألاحظ، عند خروجنا للأسواق بصحبة أمّي، أنظار الشباب تتّجه دوماً نحوها. عند وصولي إلى سنّ السابعة عشرة، ودخولي الصفّ الثالث الثانوي، كانت أختي يسرا قد حظيت في سنتها الأولى الثانويّة بشعبيّة كبيرة بين معلماتها ورفيقاتها، لم أحظَ بها عند دخولي إليها. بدأت الأمّهات يزرنَ بيتنا. كلّ واحدة منهنَّ تُفصح لأمّي عن رغبتها في أن تكون يسرا زوجة لابنها. واحدة أو اثنتان منهنَّ، تقدّمت لخطبتي. كانت نار الغيرة تستعر في أعماقي كلما دقَّ بابنا شابّ لطلب يد

يسرا. لاحظت أمّي ما يعتريني. صارت تتحفّظ في الكلام أمامي حرصاً على مشاعري. تتحاشى التحدّث عن الخطّاب الذين يطرقون بابنا لأجل يُسرا. كان الفضول يدفعني للتنصّت على أحاديثها مع أبي، فعرفتُ أنّهما اتّفقا في ما بينهما، على تأجيل موضوع زواجنا، حتّى تتخرّج كلتانا من الجامعة. أزاح قرارهما القلق الجاثم على قلبي.

---

[1] خبز حجازي، يُخبز في فرن شعبي، تشتهر به مدينتنا جدّة ومكّة.

[2] رقائق من العجين تُقدَّم بعدّة طرق. يسمّى «مطبّق مالح» إذا حُشي بالجبن أو بالبيض والكرّات واللحم المفروم، و«مطبّق حلو» إذا حُشي بالموز والبيض، ويُطهى في الفرن.

[3] عجين مهروس مع الموز، يُطهى في الفرن، وهو أيضاً طبق حجازيّ.

[4] هي عجينة مكوّنة من الفول النابت والكرّات تُقلى في الزيت الحارّ. لكنّها مختلفة عن الفلافل الشامية والطعمية المصرية.

2

أمسك النعاس بجفون جاسمين. توقّفت عن القراءة. طوت الصفحة التي توقفت عندها. أغلقت المفكّرة. وضعتها على المنضدة بجوارها. كان الوقت يقترب من منتصف الليل. تدثّرت باللحاف جيداً. راحت في النوم. استيقظت عند العاشرة صباحاً. نظرت إلى شاشة هاتفها المحمول. وجدت أربعة اتّصالات، اثنين من ستيف، وواحداً من سوزان، والأخير من إميليا. ترك الجميع رسائل متشابهة المضمون. السؤال عن أحوالها، وطلب مُعاودة الاتصال للاطمئنان عليها. أرجأت الاتّصال بهم. أخذت حمّاماً دافئاً. لبست فستاناً قطنياً قصيراً بكميّن قصيرين. جلست أمام المرآة. جفّفت شعرها بالمجفّف الكهربائي. تركته منسدلاً على ظهرها. أحسّت بالجوع. نزلت إلى المطبخ. أخرجت كرتونة الحليب من رفّ الثلاجة. وضعت حفنة من القمح المقرمش في إناء صغير. صبّت عليها القليل من الحليب. جلست على أحد الكراسي المحيطة بطاولة المطبخ. أخذت تزدرد الطعام في صمت. مدّت بصرها عبر نافذة المطبخ. سرحت في مضمون المفكّرة. تساءلت في نفسها «هل المفكّرة تخصُّ أمّي أم هي لأحد من معارفها؟ إن كان مضمون المفكرة كتبته أمّي، فمن هذا الرجل الذي تحتفظ بصورته؟ هل هو حبيبها الأول، أم قريب لها، أو ربّما صورة أخيها الذي تحدّثت عنه في مفكّرتها؟». فاحت رياح الماضي في أرجاء المكان. استحضرت مشاهد لم تُلاحظها من قبل. كانت تسير في عامها الثالث عشر، عندما كانت دور السينما تعرض فيلماً حقق أيّامها إيرادات كبيرة. كان اسم الفيلم My name is Khan (اسمي خان). بطل الفيلم هندي مسلم اسمه «رزوان رضوان». قصّته تدور حول ذلك الرجل، المُصاب بمرض التوحّد. تتذكّر أنّ والدتها دخلت الفيلم ثلاث مرّات، وفي كلّ مرّة كانت تبكي بحرقة وهي

تُتابع أحداثه. هل ذكّرها بطل الفيلم بأخيها؟ أفاقت من تساؤلاتها، مردّدة في سرّها «المذكرات لم تزل في بدايتها، وستظهر لي الحقائق تدريجاً».

خرجت جاسمين من البيت. قادت سيّارتها في اتّجاه مكتب محامي العائلة، السيد وليم توماس. كان صديقاً لوالدها منذ طفولتها. درسا المحاماة معاً في نفس الجامعة. تشاركا في فتح مكتب محاماة في بوكاراتون. بعد وفاة والدها، عرضت عليه والدتها شراء حصّة زوجها. لم يُمانع. ظلّت صلته وثيقة بأسرة صديقه. جعلته والدتها محامي الأسرة. تستشيره في الكثير من الأمور. طمأن المحامي جاسمين بأنّ هناك بعض الإجراءات المتعلقة بالضرائب، التي عليه إنهاؤها، وبعدها تُصبح كافة ممتلكات والدتها باسمها. كان الحزن بادياً عليه. أخذ يُثني على والديها بتأثّر واضح. أوصاها بأن لا تتردّد في أخذ مشورته في أيّ أمر يشغل بالها. فاتحته برغبتها في بيع متجر والدتها، فهي ستكون منهمكة في دراستها بعد دخولها الجامعة. اقترح عليها السيد وليم عرض فكرة بيع المتجر على سوزان، ربّما تُقدم على شرائه. تحمّست لرأيه. ودّعته. خرجت من مكتبه. أدارت مُحرّك سيّارتها. ظلّت واقفة في مكانها. لا تدري أين تذهب! انفرطت في البكاء. كانت أمّها تفرض عليها سياجاً من الحماية المفرطة. كانت تقول لها: «أنا أمّك، وصديقتك، وأختك. يوماً ما ستُدركين أنّني أفعل كلّ هذا من أجلك». خطرت فجأة على بالها صديقتها صوفي. لم تكن لديها صديقات مُقرّبات سواها. كانت صوفي ذات شخصية مرحة. تعرّفت إليها جاسمين في مدرسة الباليه عندما كانت في سنّ الثامنة. تكبرها صوفي بعام واحد. كانت تتمتّع بقوام جميل، وبشرة بيضاء مائلة للحمرة. تمتلك عينين مسحوبتين كعيني القطّة، بحدقتين زرقاوين، يشعُّ منهما الذكاء، وشعر ذهبي كثيف بلون زهرة عبّاد الشمس، يصل طوله حتّى كتفيها. ظلّت صلتهما قويّة حتّى بعد أن توقفت جاسمين عن الذهاب إلى حصص الباليه. انفصلا بعد سفر صوفي بداية العام المنصرم إلى روما للالتحاق بمعهد باليه مشهور هناك. كان شغفها كبيراً بفنّ الباليه. حلمها أن تُصبح راقصة مشهورة. كانت أمّ جاسمين تحبُّ صوفي. تطمئنّ لرفقة ابنتها معها. تنظر بانبهار إليها. تقول لجاسمين بين حين وآخر: «تمنّيتُ لو انتقلت إليكِ عدوى حب فن الباليه من صديقتك صوفي». ظلّت جاسمين على تواصل مع صوفي عبر الفايسبوك، وعن طريق الإيميل. أسرة صوفي تنحدر من أصول إيطالية، من مدينة سردينيا تحديداً. هاجرت إلى

الولايات المتّحدة الأميركيّة في منتصف ستينيات القرن الماضي. استقرّت أسرتها في مدينة شيكاغو التابعة لولاية إلينوي حيث وُلدت صوفي. انتقل أهلها إلى بوكاراتون قبل سنوات عدّة. افتتح والدها مطعماً صغيراً فيها للأكلات الإيطالية. اشتهر بعد فترة قصيرة بتنوّع أطعمته، وحلاوة مذاقه. يعود الفضل لنجاح المطعم إلى والدَي صوفي، اللذين كانا يُشرفان بنفسيهما على إعداد قوائم الطعام، وطبخ الوجبات. كانت جاسمين تتردّد عليه كثيراً مع والدتها.

هاتفت جاسمين أثناء عودتها إلى البيت صديقتَي والدتها. دار الحديث حول السؤال عن أحوالها، والاطمئنان عليها. أخبرتها سوزان أثناء المكالمة أنّها ستُقيم يوم السبت غداء شواء بحديقة منزلها ودعتها للحضور. وعدتها جاسمين بالقدوم. لم ترغب في مهاتفة ستيف. آثرت الانفراد مع نفسها. دلفت إلى البيت. طلبت عبر هاتف البيت فطيرة بيتزا بالتونة والفطر. أحضرت مُفكّرة أمّها من الداخل. وضعتها على الطاولة بجوارها. خلعت فردتي حذائها. تربّعت على الأريكة بغرفة الجلوس. أخذت تلتهم قطع البيتزا بنهم. كانت تشعر بجوع شديد. لم تُبقِ على أيّ قطعة منها. أمسكت هاتفها المحمول. أرسلت رسالة عبر الواتساب لصديقتها صوفي. جاءها الردّ على الفور. أخبرتها بأنّها ستحضر إلى بوكاراتون بعد يومين لقضاء أسبوع مع أهلها ولرؤيتها. أخبرتها بأنّها في شوق عارم إليها. فرحت جاسمين. أرسلت لها رسمة قلب. كانت هي الأخرى متشوّقة لرؤية صديقتها. شعرت بالارتياح. مدّدت جسدها على الأريكة. وضعت وسادة الأريكة خلف رأسها. سحبت المفكّرة من مكانها. فتحتها على الصفحة المطويّة. باشرت القراءة من جديد.

3

لا أعرف متى أحسستُ بطعم الحبّ، ولا كيف تسلّل إلى قلبي! الحبّ مثل دبيب النمل، لا نشعر بتسلّله، ولا نحسُّ بلمسته، إلّا عندما يُدغدغ جدران أفئدتنا. أحببتُ طارق جارنا مع تفتّح براعم مراهقتي. كنتُ حينها أسير في سنتي السابعة عشرة. كانت عائلته قد سكنت بجوارنا منذ أكثر من أحد عشر عاماً. تعود أصول عائلته للمدينة المنوّرة. كان والد طارق يعمل موظفاً حكوميّاً بوزارة التربية والتعليم، قبل أن تتمّ ترقيته ونقله إلى مدينة جدّة. أمّي وأمّه نشأت بينهما صداقة جوار هادئة. كانتا تتبادلان الزيارات من حين لآخر. يلتقي والدي بوالده في المسجد القريب من بيتنا، عند صلاة الجمعة من كلّ أسبوع، وفي صلاتَي عيد الفطر وعيد الأضحى، حيث يتبادلان التهاني والتبريكات. ترعرع حبّ طارق بقلبي مع مرور الأيام. كان حبّه مثل شجرة الياسمين التي تمتدّ فروعها، وتفوح رائحة زهورها البيضاء بآفاق عمري. كنتُ أُغافل أمّي. أتسلّل إلى شرفة غُرفة الجلوس الصغيرة بالطابق الثاني لبيتنا. كانت الغرفة الوحيدة التي تُطلُّ شُرفتها على الشارع المحاذي لبيت أهل طارق. بتُّ أعرف مواعيد خروجه من المنزل. أمدُّ رأسي خارج سور الشرفة. يرفع رأسه ناحيتي ثمّ يرخيه سريعاً، ويمضي بسيّارته. أتخيّله يُبادلني نظراتي بنظرات تطفح بالشوق. تملأني البهجة. «تُرى، ما حقيقة مشاعره تجاهي؟ هل يُبادلني الحبّ؟ هل تتشوّق روحه لمعانقة روحي في عتمة الليل، كما يفعل العشّاق؟ هل يشتهي جسدي، وتتحرّك ذكورته كلما لمحني؟ هل أصابته سهام الحبّ كما أصابتني؟». كنتُ أطرح كثيراً هذه الأسئلة على نفسي. كنتُ أحبُّ مشاهدة الأفلام الرومانسيّة. أتخيّله يُقبّلني كما يقبّل البطل حبيبته. أحلم أن تكون نهاية قصّتي معه، كنهاية واحد من هذه الأفلام. لم أُخبر أحداً بهذا العشق الذي ملأ

كياني. آثرتُ الاحتفاظ به في داخلي. كنتُ أحسُّ بأنّه سرّي الذي لا ينبغي أن أبوح به لأحد، ولا حتّى لأختي، أقرب الناس إليَّ. أحياناً كنتُ ألمح طارق يقف عند باب منزلهم، عندما أكون ويسرا في طريقنا إلى المدرسة صباحاً. أرمقه بطرف عيني. أرمي إليه بابتسامة. أراقبه يرمينا بنظرات خاطفة، ثمّ يُدير وجهه إلى الناحية الأخرى، تحسّباً من أبي.

كانت أُمّي تحبُّ الجلوس وقت الأصيل في الشرفة الأرضيّة الواسعة المفتوحة على الحديقة. كانت حديقة بيتنا بسيطة، ضيّقة المساحة، خالية من شجيرات الورود، باستثناء شجرة الياسمين التي تمتدّ فروعها إلى مدخل الشرفة. كانت الشرفة مفروشة بسجّادة عجميّة سميكة، وضعت أمّي في زواياها وسائد شرقية صنعتها عند أحد الحرفيين الفلسطينيين المشهورين بهذه المهنة في تلك الفترة. عندما يكون الطقس حارّاً، تطلب أمّي من خادمتنا الأندونيسيّة جلب المروحة العموديّة من غرفة الجلوس وتُديرها لتُرطّب بها حرارة المكان. تحرص أمّي على أن نُشاركها هذه اللحظات بعد أن نفرغ من واجباتنا المدرسيّة. نجلس أنا ويسرا بجوارها. أمامنا إبريق الألمنيوم الفضّي، المحتوي على الشاي الممزوج بالنعناع المديني، والفناجين الصغيرة الزجاجيّة ذات الدلّاية. كنتُ أرفع رأسي عالياً. ألمح طارق يسترق النظر إلينا من سطح منزلهم. أشعر بالسعادة. بتُّ مُقتنعة بأنّه يُبادلني الحبّ، بأنّه قريباً سيُرسل والدته لخطبتي.

بين حين وآخر، يجتمع عندنا عدد من جارات الحيّ. كانت أمّي تحبُّ التواصل معهنَّ، وتبادل الأحاديث. جميعهنَّ كنَّ يُحببنها. يُطلقنَ عليها لقب السيدة الكريمة، الودودة. كانت أمّي مشهورة بصنع كيكة البرتقال. الجميع كان يثني على طعمها اللذيذ. تُقدّمها لجاراتنا، بجانب أطباق المكسّرات المشكلة التي كان يشتريها أبي من دكّان «النقلي» الشهير، الكائن بسوق جدّة القديم. كانت تزورنا في فترات متباعدة زوجة عمّي زهير، الذي يصغر أبي بسنة واحدة. كنتُ أحبّها، وكانت هي الأخرى متعلقة بي. كانت تُكرّر لي بعينين تطفحان بالحب: «لو قدّر الله أن يكون لي بنت، لتمنّيتُ أن تكون شبهك». كانت نظرات الحزن لا تُفارق عينيها. قليلة الابتسام والكلام. عرفتُ من أُمّي أنّ الله لم يكتب لها أن تُنجب ذريّة. ظلّت هذه الحسرة تُلازمها. ماتت في سنّ

صغيرة. تزوّج عمّي بعدها بفتاة في العشرينات من عمرها. أنجبت له خلال ثلاث سنوات طفلين، ولداً وبنتاً.

سألتُ أمّي مرّة، عندما لمحت صورة زوجة عمّي المتوفّاة بين ركام الصور في أحد أدراج غرفة نومها:

– لماذا ماتت لطيفة، زوجة عمّي، في عمر صغير؟ هل يخطف الموت الشابّات؟ كنتُ أظنّ أنّه يأخذ أرواح الكبار فقط كجدّي وجدّتي!

سرحت أمّي في صورتها، تنهّدت تنهيدة طويلة، قائلة:

– كانت زوجة عمّك امرأة لطيفة المعشر. لا أحد يا بنتي يرسم قدره! الوجع يا حياة يكسر القلب، ويُدمي الفؤاد. أنتِ ما زلتِ صغيرة، وربّما لا تفهمين ما أعنيه بكلامي هذا! القلب الحزين تضعف عضلاته، ولا يقوى على الصمود أمام ضربات الأيّام. مسكينة، قلبها لم يحتمل كمّ آلامها. الضغوط الداخليّة قضت عليها. رحمها الله، كانت امرأة طيّبة.

عُدت لسؤالها:

– لماذا لم يمت عمّي كمداً عليها؟ ألا يحزن الرجال أيضاً؟

نظرت في وجهي متحيّرة، وأجابتني قائلة:

– جميعنا نحزن، رجالاً ونساءً. الفجيعة لا تُفرّق بين رجل وامرأة، لكن هناك حزن عابر يمرّ مرَّ الكرام، وننساه في زحمة مشاغلنا، وهناك حزن يتشبّث بجدران قلوبنا، ويظلّ بجوارنا ليرحل معنا عند مغادرتنا الدنيا. هناك ألم يجري من تحت أرجلنا، وهناك ألم تغوص أقدامنا فيه، ولا نستطيع الخلاص منه، ويشدّنا إلى أعماقه كالرمال المتحرّكة. قد يكون تشبّث عمّك بالحياة، أقوى من كمّ مصائبه.

– كلامك يعني أنّ عمّي لم يكن يُحبّ زوجته حبّاً عميقاً، وإلّا للحق بها! عمّي ليس رجلاً وفيّاً.

علّقتُ على كلام أمّي بعفويّة، فأجابتني قائلة وبلهجة منفعلة:

– لا تقولي هذا الكلام عن عمّك. لكلّ علاقة ظروفها. الله أعلم بخبايا القلوب. غداً الأيّام ستُعلّمكِ الكثير.

ثمّ أخرجت زفرة عميقة، متابعة: «الله يبعد عنكم غدر الأيّام».

مع مرور السنوات، انطمست صورة زوجة عمّي من خيالي. أصبحت ذكرى باهتة إلى أن حضرت صورتها فجأة في ذاكرتي. حدث ذلك بعد أعوام طويلة،

حين تعرّضت لموقف مؤلم زلزل أركان حياتي. كان قلبي حينها يقطر وجعاً، ووخزات الألم تعتصر فؤادي. ظننتُ أنّ ملك الموت واقف عند بابي، ينتظر إذن الله ليقبض روحي.

في ليالي رمضان كانت أمّي تسمح لنا بالسهر حتّى الثانية عشرة. كانت تذهب إلى المسجد لأداء صلاة التراويح، بينما نقضي الوقت أنا ويسرا في مُشاهدة المسلسلات التي تُعرض على شاشة التلفاز، والتشاجر حولها، وحول من هو أفضل ممثّل ومن هي أفضل ممثّلة. كنتُ أحبُّ أمسيات رمضان، وما زالت لتلك الأيّام ذكرى جميلة في خاطري تحضرني عندما يُفاجئني حنين لطفولتي، ومراحل مراهقتي. ظلّت ليالي رمضان الجميلة ملتصقة بفكري. أشاهد عبر القنوات مظاهر الاحتفال بقدومه في السعودية. تغمرني وقتها الذكريات. أتذكّر فانوس رمضان الذي كان يهديه لنا أبي ليلة دخول رمضان. كان كلّ منّا يتشبّث بفانوسه. نجري أنا ويسرا إلى غرفتنا فرحتين به. ما زلتُ أتذكّر ضوء الداخلي، الذي يعكس من الخارج ألوانه المبهجة.

مرّت الأيّام بسرعة البرق. تخرّجتُ من مرحلتي الثانويّة. سألني أبي: «حياة، هل قرّرت أيّ قسم ستدخلين؟». «قسم التاريخ»، أجبته على الفور. كان عندي فضول لاكتشاف ما جرى في الماضي. كانت بجعبتي علامات استفهام كبيرة حول سيرة قادة وعظماء خلّدهم تاريخنا. كنتُ أريد أن أعرف الأسباب التي دفعت بعضهم إلى التورّط في مجازر دمويّة. وهل كانت تصرّفاتهم، من أجل نشر الإسلام، ورفع رايته بالفعل؟ هل كانت من أجل إشباع نشوة الانتصار بداخلهم؟ هل كانت من أجل حصد الغنائم، والاستيلاء على الأراضي، وأسر حرائر النساء، وجعلهنَّ سبايا والاستمتاع بهنَّ؟ صمت أبي هنيهة، ثمّ قال: «حسبتك ستدخلين كليّة الاقتصاد المنزلي. كنتُ أراكِ دوماً مستمتعة بالرسوم التي يرسمها أخوكِ، واستشعرتُ حبّ الفنون فيكِ. يظهر أنَّ انطباعاتي لم تكن في محلّها!». لم أُعلّق لحظتها على كلامه. كنتُ بالفعل متعلّقة بالتاريخ، لكنّ هدفي كان مُنصبّاً على أن أصبح زوجة لطارق، الرجل الذي أسر قلبي وملك فؤادي.

بعد سنوات طويلة من تخرّجي من الجامعة، وزواجي وسفري إلى الخارج، تولّدت بداخلي قناعة بأنّني بعثرتُ عمري بين وهم حبّ صنعته في فكري، ورسمتُ خطوطه بأناملي، ثمّ أهلتُ عليه التراب بكامل إرادتي عندما شعرت

بمرارة الخديعة تسري في شراييني، وبين دراسة تخصّص لا يُلائم تفكيري، ولا يتناسب مع شخصيتي. اكتشفتُ أنّ تاريخ كلّ شعوب الأرض مليء بالأكاذيب! أنّ الكثير من الوقائع التي درستها على مقاعد الدراسة متناقضة! بتُّ مُقتنعة بأنّ التاريخ يكتبه المؤرّخون من وجهة نظرهم، ويفرضه المنتصرون الذين يُريدون أن يُلمّعوا صورهم أمام شعوبهم. أنّ الكلّ بلا استثناء أيديهم ملطّخة بدماء أبرياء لا ذنب لهم سوى أنّهم وُلدوا في ذلك الزمن والمكان. أنّ كلّ بطل في التاريخ، كان يُريد أن يبني أمجاده، ويُشبع أطماعه، على ركام جثث الضحايا!

ظلَّ أيامها طارق محور حياتي. أستمتع بحبّي له في أعماقي بانتظار اليوم الذي تدقُّ فيه أمّه بابنا. كان الحلم يكبر كلّ يوم في أعماقي. أصبحتُ مُقتنعة بأنّ طارق لي وحدي. بأنّه سيكون نصيبي في الدنيا. كانت لي غرفتي الخاصّة، منذ أن بلغتُ سنّ السادسة عشرة. رأت أمّي أنّ من حقّي أنا ويسرا أن يكون لكلّ منّا عالمها الخاصّ. تمسّكتُ بالبقاء في غرفتي. كانت غرفة متوسّطة الحجم. تطلُّ نافذتها على الزاوية اليسرى من حديقة بيتنا. آثرتُ الإبقاء على كلّ شيء فيها. كانت مفروشة بالموكيت الأبيض. السرير كبير الحجم. الدولاب مُقسّم لثلاثة أجزاء. كانت مساحة غرفتي أكبر قليلاً من الغرفة التي انتقلت إليها يسرا. تطلُّ نافذة غرفتها على الزاوية اليمنى من الحديقة. كانت غرفة يسرا تخصُّ أمّي. تضع فيها أغراضها الخاصّة القديمة. نقلت أمّي حاجياتها إلى غرفة ملابسها التابعة لغرفتها. أحضر أبي الدهّان اليمني الذي كان يرتاح في التعامل معه، لجودة عمله، وطلى جدران غرفة يسرا باللون البيج الفاتح بناءً على رغبتها. طلبت من أبي شراء غرفة نوم حديثة الطراز لها. كان لونها يتطابق مع لون طلاء الجدران. تركت يسرا الأرض عارية من الموكيت. فضّلت سجّادة صغيرة، مربّعة الشكل، زاهية الألوان، اشتراها لها أبي. وضعتها أمام سريرها. كانت يسرا فرحة بغرفتها. انفصالنا أسهم في أن تتكتّم كلّ منّا على أسرارها.

كنتُ قد نجحت للتوّ في عامي الثاني بالجامعة، الذي توافق مع حصول يسرا على شهادة الثانويّة العامة. أيّامها كنت بنهاية العشرين من عمري، حين توافدت الأنباء من كلّ حدب وصوب، عن احتلال صدّام حسين لدولة الكويت. أصبح شُغل أبي الشاغل مُشاهدة الأخبار، ومتابعة آخر المستجدات المنشورة

بالصحف. قال أبي لأمّي ذات صباح بنبرة مرتعشة: «تعتقدي يا أم ياسين، صدّام حسين صادق في تهديده للسعوديّة؟». ردّت عليه أمّي باسمة، وبلهجة واثقة: «الله يهديك يا أبو ياسين. إنتَ مصدّق هادا الكلام؟ أميركا راحت فين! تظنّ حتخلّي صدّام يدخل بلدنا بهادي السهولة!».

صدقت حاسّة أمّي، انتهت الحرب في سبعة أشهر، في شهر فبراير 1991 م. كان أبي يبكي فرحاً، غير مُصدّق أنّ هذه الغمّة قد انزاحت. قال لأمّي: «تعرفي يا أم ياسين، أنا فرحان، كنت كلّ ليلة أنام وأنا أفكّر فيكم. كنت خايف يجرالكم شي، وأقوم الصباح ألاقي بلدنا تحت حكم الجيش العراقي. الحمد لله غُمّة وانزاحت». أنا واثقة بأنّ أبي ندم على تلك الفرحة التي غمرته وقتها. تخيّلته يصرخ وجعاً، وهو يُشاهد ويسمع ما قامت به الولايات المتّحدة الأميركيّة، عندما دمّرت مدن العراق، وشرّدت شعبه، بحجّة وجود أسلحة الدمار الشامل.

مرّت الشهور، وأنا أنتظر أن يدقّ السعد باب حياتي. كنتُ بنهاية سنتي الثالثة في الجامعة. حدثت هذه الواقعة عند عودتي إلى البيت. كان يُصادف يوم الخميس. وجدتُ أمّي تُرتّب غرفة الضيوف. تطلب من الخادمة إخراج صحن الحلويات الكبير من دولاب السفرة، وطقم الشاي الصيني الخاصّ بالضيوف، ومستلزمات الضيافة الأخرى. دفعني الفضول لسؤالها: «أمّي، لمَ كلّ هذه التحضيرات؟ من سيزورنا اليوم؟». قالت بنبرة فرحة: «جارتنا أمّ طارق». تسارعت ضربات قلبي. هرعتُ إلى غرفتي. «أخيراً سيأتي طارق لخطبتي». تحمّمت. جفّفتُ شعري. جعلته ينساب على ظهري. لبستُ ثوبي الأزرق من قماش الجرسيه الذي خاطته لي أمّي عند السيّدة فاتن الخيّاطة. كانت فلسطينيّة الجنسيّة، تسكن في الشارع الخلفي لبيتنا بعمارة قديمة، في شقة متوسّطة الحجم مع زوجها وابنتها الوحيدة. كانت معروفة بين سيّدات الحيّ بمهارة خياطتها، وأسعارها المعقولة مقارنة بغيرها. نزحت مع زوجها إلى السعودية عن طريق الأردن بعد حرب 1967 م. جاءت إلى جدّة وهي عروس في الثامنة عشرة من عمرها. كانت قليلة الكلام، متحفّظة في حديثها. لا تغيب مسحة الأسى عن صفحة وجهها. كان زوجها يعمل حلّاق رجال بمحلّ صغير في حيّ السلامة. كانت أمّي كلما أرادت السيّدة فاتن، تُرسل إليها خادمتنا الأندونيسيّة. تنصحها أمّي باسمة أن تُدخل خطّ هاتف لشقتها، كي تُسهّل الأمر

على زبائنها. كانت تردُّ في كلّ مرّة عليها نفس الردّ، الوعد بأن تطلب من زوجها تحقيق ذلك. بعد تزايد الطلب عليها، أدخلت خطّ هاتف لشقتها. أرتاحت بعدها خادمتنا من مشوار الذهاب إليها، ولم تعد أمّي كذلك تجد صعوبة في التواصل معها.

رحتُ أدور لحظتها في غرفتي. أنتظر بحماسة سماع نداء أمّي، كي أسلّم على أمّ طارق. أحسستُ كأنّ الثواني والدقائق تمرّ بطيئة. كأنّ عقارب الساعة تمشي متكاسلة. بدأتُ أشعر بالقلق. كانت الساعة تقترب من الثامنة والنصف. «لماذا لم تُنادني أمّي؟ لقد وصلت والدة طارق منذ الساعة السابعة إلى بيتنا، ما يعني أنّه مضى على وجودها أكثر من ساعة! ماذا يجري في الخارج؟». بدأ القلق يستحوذ على تفكيري. تنبّهتُ على صوت «زغرودة» عالية. تسارعت نبضات قلبي. كنتُ واثقة بأنّ أمّي ستفتح الباب بعد ثوانٍ وتُقبّلني قائلة: «مبروك يا حياة. أمّ طارق خطبتك لابنها».

دخلت أختي يسرا مهرولة صوبي، وهي تلهث، قائلة:

– باركي لي يا حياة، طارق تقدّم لخطبتي.

ضمّتني إلى صدرها متابعة:

– عقبالك يا حياة. أنا فرحانة، سعيدة.

دمعت عيناي. سألتها بشفتين مرتعشتين:

– تقولين خطبكِ! هل كنتِ على علاقة بطارق؟ لماذا لم تخبريني؟ هل أنا آخر من يعلم؟

– اعذريني يا حياة، اتّفقنا أنا وهو أن يكون سرّاً بيننا إلى أن تمرّ سنتي الأولى في الجامعة، كي لا يعترض أبي على طارق. تعلمين بأنّ أبي حريص على أن تُكمل دراستنا. آه يا حياة، لا تتصوّرين كم أحبّه، ومقدار حبّه لي.

شعرتُ بنار تتأجّج في داخلي. أحسستُ بأنّني تلقّيتُ طعنة في ظهري من أقرب الناس لي. تمنّيتُ لو واتتني الجرأة لصفعها. أن أصرخ في وجهها قائلة: «كيف تسرقين حبّ عمري بهذه السهولة؟». تمالكتُ نفسي. تصنّعت الابتسامة. حضنتها. باركتُ لها. طلبتُ منها أن تحكي لي بالتفصيل، متى بدأت علاقتهما! كنتُ أريد أن أعرف متى حكم الله عليَّ بالشقاء، ومتى قرّر أن يُؤثر أختي عليَّ، ويمنحها السعادة! هل لأنّها كانت أجمل منّي؟ هل لأنّ قلبها أنقى

وأطهر من قلبي؟ تلك الليلة تدثّرتُ بأوجاعي. حاولت أن أكتم صوت أنّاتي، وصوت نحيبي. كنتُ تلك الليلة، والأيّام التي تلتها، أتعس فتاة في العالم.

4

لم أكن أدري أنّه طوال السنوات التي مضت من عمري، كانت نسائم الحبّ الواهم، تستهزئ بي، وتُداعب ساخرة صفحة قلبي. لم أكن أظنّ أنّ الهوى اختار أختي ليتلحّف بها. كان طارق بهيّ الطّلعة. شعر ناصيته كثيف، فاحم السواد، بتموّج خفيف. يتمتّع بقامة رجوليّة لافتة. سمرته القمحيّة زادته وسامة وجاذبيّة. ينتمي إلى أسرة حسنة السمعة. تربّى في بيت مستقرّ. أبوان كرّسا كلّ حياتهما لولديهما. لم يُعكّر صفو هذه الأسرة حدث جلل. ظلَّ سقفها متماسكاً، ونموذجاً يُحتذى به وسط عائلتهما. كان الكلّ يُعبّر عن فرحته بزيجة طارق ويسرا. يُكرّرون أنّ يسرا محظوظة لارتباطها بهذا الشابّ. كلّ شيء أيّامها مرَّ بسرعة البرق. حُدّد حفل الخطوبة بعد أقلّ من أسبوعين على تقدّم طارق لخطبة يُسرا. كانت الفرحة تتراقص في عينيها. غمر الضياء صفحة وجهها، فزاده رونقاً وبهاءً. كانت أمّي تُريد أن تشتري لها فستاناً جاهزاً من أحد المتاجر المتخصّصة لمثل هذه المناسبات، لكنّ يسرا فضّلت أن تخيط فستانها عند السيدة فاتن. قالت لأمّي بنبرة متحمّسة: «أحبُّ أن يكون ثوبي متميّزاً، وأن أضمن أن ليس هناك فتاة أخرى تملك مثله». كان ثوب يسرا أخضر اللون، بإزار ذهبي. فتحة صدره صغيرة من الأمام، تُبيّن حلاوة جيدها. الكمّان يصلان إلى منطقة الكوع، مُظهرَين نحافة ذراعيها. تركت شعرها الناعم الكستنائي ينساب على ظهرها. علّقت بشحمتي أذنيها قرطيْ أمّي الذهبيين، المغروس بكلّ منهما فصّ صغير من الألماس. كانت يسرا ليلتها رائعة الجمال. لم يحد طارق بنظره عنها. كان مبهوراً بها. قدّمت إليه أمّه علبة الشبكة. فتحها. وضع بخنصر يد يسرا اليمني دبلة ذهبية جميلة، وفي خنصر يدها الأخرى حشر خاتماً ذهبيّاً تُحيط به فصوص من الألماس الصغير الحجم. وضعت هي بدورها دبلة

من الفضّة بخنصر يد طارق اليمنى. أبقى طارق يدها في يده. أطلقت أمّي زغرودة طويلة. كانت الأغاني المفرحة تنبعث من جهاز التسجيل الموضوع بزاوية غرفة الضيوف. انزويتُ في مقعد عند زاوية الصالون. شردتُ بأفكاري. تخيّلت نفسي مكان يسرا. يدي مشبوكة بيد طارق. عيناه لا تحيدان عن عينيَّ. أفقت من سرحاني على لكزة أمّي، قائلة: «حان وقتُ العشاء. هيّا، ساعديني على مُباشرة الضيوف». نهضتُ من مكاني. حاولت التماسك. اقتربت من يسرا. طبعتُ قبلة على صدغها. باركتُ لها. مددتُ يدي لأصافح طارق. كانت يده دافئة. تمنّيتُ لحظتها لو تركها ترقد في باطن كفّي. ابتسم في وجهي، قائلاً: «عقبالك يا حياة». ابتسمتُ في وجهه. هرولت من أمامهما باتّجاه «بوفيه» العشاء. أثنى الجميع على حفلة الخطوبة أنّها كانت ليلة رائعة. انصرف الحضور عند الواحدة صباحاً. ودّع طارق يسرا، وذهب مع والدته. عدتُ إلى غرفتي أترنّح من أنين الوجع الذي ملأ وجداني. أحكمتُ إغلاق باب غرفتي من الداخل. كنتُ أريد الاختلاء مع أحزاني. وقفتُ أمام مرآتي. نظرتُ إلى هيئتي. كنتُ قد أصررت على ارتداء ثوب أسود. حاولت أمّي ثنيي عن اختياري، قائلة: «الأسود لون جميل، ولكنّه لا يتناسب مع هذه المناسبة السعيدة». تمسّكتُ بارتدائه تلك الليلة. كنتُ أتمنّى لو أملك قدراً من الشجاعة لأرتمي على صدرها، وأعترف لها بأنّ هذا السواد يعكس عصا الآلام التي تضرب كلّ رقعة بجسدي دون رحمة. ارتميتُ على فراشي. دفنتُ وجهي في وسادتي. أطلقتُ العنان لدموعي.

عرفتُ من خلال حكايات يُسرا، أنّ كلتينا وقعت في حبّ رجل واحد بدون أن تدري إحدانا عن الأخرى. قصّت لي بالتفصيل متى بدأت حكاية حبّهما. أخبرتني كيف تعلّق بها طارق منذ اللحظة الأولى التي رآها فيها. حدث ذلك وهي ذاهبة إلى المدرسة. صار يتعمّد الاستيقاظ مُبكراً كي يلمحها من بعيد. كانت يسرا تسير في عامها السادس عشر عندما بدأ طارق يُشاغلها عبر هاتف البيت. كانت تستغلُّ خلود الجميع للنوم، وتسحب سلك هاتف البيت إلى غرفتها. تتسامر مع طارق لساعات طويلة. كان جانب من حائط بيتنا ملاصقاً لحائط بيت أهل طارق. يسند طارق السلّم الخشبي الخاصّ بحديقتهم، على سور بيتهم، ويسرا تُمهّد له الأمر. تضع له السلّم الخاصّ بحديقتنا، ليسهل على طارق النزول إلى الجهة الأخرى، ليُصبح داخل حديقة بيتنا. كانا يندسّان في

أحد أركان الحديقة الخافتة الضوء. يدخلان في أحاديث هامسة، تتخللها قبلات خاطفة. أفصحت لي أنّها أدخلته إلى غرفتها مرّتين. الأولى عندما ذهب والدانا إلى الطائف، للتعزية في قريب لأبي، كان يُقيم هناك منذ سنوات طويلة. والثانية عندما سافرا معاً إلى القاهرة لحضور عرس ابن أحد أصدقاء أبي المقرّبين. قالت لي إنّ هاتين الفرصتين أتاحتا لها معرفة طارق عن قرب. تركته يلمس نعومة بشرتها. سمحت له بتقبيلها قبلات طويلة. كان الفضول يدفعها لتذوّق قبلة لم تُجرّبها، ولا تعرف عنها سوى ما تُشاهده في الأفلام. أخبرتني كيف كانت تذوب بين ذراعيه في كلّ مرّة يتلامس فيه جسداهما. أخبرتني بحماسة أنّه شابّ نبيل. قصّت عليَّ كيف حاول مرّة أن يقبض بكفّيه على نهديها. أبعدته عنهما بلطف. قالت له بنبرة رجاء: «لا أستطيع تحمّل لمساتك. يداك دافئتان تُذيبان مُقاومتي». قال لها بالحرف الواحد: «أنا آسف، فلتت منّي شهوتي. صدّقيني يا يسرا، أنا حريص عليكِ أكثر من حرصكِ على نفسكِ. لا تعتقدي أنّني أستغلّ حبّكِ لأكتشف تفاصيلك. سأحرص على أن يظلَّ جسدك طاهراً إلى أن تُصبحي زوجتي. حبّي لك صادق. أعرف أنّ قانون العشق يبيح للعاشقين كسر قائمة المحرّمات الدينيّة، والقيود الاجتماعيّة، ويجعلهم لا يكترثون بكلمات الوعيد، ولا يعبأون بنظرات الملامة التي ترشقهم على جنونهم، لكنّني يا حبيبتي ما زلتُ رجعيّاً في نظرتي للحبّ. حُلمي أن أحملك بين ذراعيَّ، وأنتِ تدخلين عتبة بيتنا. أمنيتي أن أدسّكِ في فراشي، بمباركة إلهيّة. أريد في ليلة عرسنا، أن أشمَّ رائحة الطُهر تفوح من جلدكِ، وأنا أجرّدكِ من ملابسك، وأستمتع بما حلّله الله لي». دمعت عيناي لحظتها. أحسستُ بحرقة تندلع في أحشائي. تمنّيتُ أن أكون تلك الحبيبة ولو لليلة واحدة، ويكون طارق، حبيبي الولهان. كم كنتُ بلهاء! غبيّة! عشتُ سنوات في حلم صنعته في خيالي! كرهتُ أختي بدون قصد منّي. الحبّ كما يحدث عن غفلة منّا، ويحتلُّ قلوبنا، ويُسيطر على جوارحنا، كذلك الكره يستحوذ علينا، دون أن نملك القدرة على دفعه خارج أسوار حياتنا. أصبحتُ أتحاشى النظر في وجه أختي كي لا تفضحني نظراتي. كانت أحلامي قد تحوّلت إلى كومة من الخيبات بسببها!

في واحد من الصباحات، رافقت يسرا أمّي إلى السوق، لشراء أشياء تخصُّ جهاز زفافها. دخلتُ غرفة يسرا. فتحت خزانتها. أخرجتُ قمصان نومها

الجديدة المعلّقة داخل الخزانة. رميتها على السرير. تفحّصتها بفضول. استحوذ عليَّ الغلّ. أمسكتُ بفستان زفافها المُغطّى بالنايلون الشفاف. أزحته عنه. وضعته على جسدي من الخارج. أخذتُ أتمايل به أمام المرآة. خطرت لحظتها على بالي فكرة شيطانيّة. أن أُشعل النار بجهاز زفافها. أحرقه كلّه كما أحرقت قلبي. لجمتُ غضبي. أرجعت الأغراض إلى مكانها داخل الخزانة. عُدتُ مهرولة لغرفتي. غُصتُ في بحيرة أفكاري. استعدتُ كلّ الأحداث التي جرت معي. صببتُ سيلاً من الاتهامات على أختي. أنّها سبب تعاستي. تمنّيتُ لو يخطفها الموت، لتسنح لي الفرصة لأستردَّ ما أخذته منّي. ماذا يضير لو رحلت إلى الأبد، وتركت لي حبيبي؟ استعذتُ من الشيطان، وطردتُ وساوسي الخبيثة من ذهني. كأنّ القدر كان يقرأ خواطري، ويتجسّس على أفكاري، ويُسجّل طلبي! لقد قرّر ملك الموت أن يُجاريني في حقدي، ويستجيب لأمنياتي. قبل زفاف يسرا بشهر، وقعت أسيرة مرض لم يعرف له الأطبّاء سبباً. فيروس غريب تسلّل إلى دمها. نحل عودها، وذبل وجهها، وانطفأت روحها المُشعّة في ليلة مُعتمة. ذرفتُ دمعاً غزيراً عليها، عندما لزمت الفراش، تغلّبت عاطفة الأخوّة على مشاعر الغيرة والأنانية. كنتُ أدعو الله في صلاتي أن ينقذها من براثن الموت. لم أكن أُفارقها. أسهر على راحتها. أساندها في مشيتها عند دخولها دورة المياه. أقوم بنفسي على تحميم جسدها. أساعدها في تغيير ملابسها. تدمع عيناي وأنا أسترق النظر إلى بدنها الذي أصبح جلداً على عظم. قالت لي مرّة: «أتظنّين يا حياة، أنّ الله أراد مُعاقبتي لأنّي سمحتُ لطارق بأن يُقبّلني قبل أن أصبح زوجته؟». رددتُ عليها وقلبي ينفطر كمداً: «لقد كانت نيّتك صافية يا حبيبتي. الله لا يُحاسبنا على لحظات ضعفنا، إن وقعت بدون قصد منّا. هو يعلم بأنّه من زرع حبَّ طارق في قلبك، لذا لا يُمكن أن يُحاسبكِ على أفعال لا حيلة لكِ فيها. ارتاحي يا حبيبتي. أريدكِ أن تبتهجي لأنّ طارق قريباً سيُصبح زوجك». ابتسمت في وجهي. رفعت رأسها. قبّلتني على صدغي. أطلقت زفرة طويلة. ارتسمت على ملامح وجهها الطمأنينة. أغمضت عينيها وراحت في النوم. كان أبي يسمح لطارق بأن يزور يسرا. كان وجهها يتهلّل فرحاً عندما تراه. يجلس على حافة سريرها، ويتأمّلها بحبّ. رآها آخر مرّة قبل موتها بيوم. طلبت منه أن يضمَّ يدها بين كفّيه. قالت له والدموع تنساب على وجنتيها:

– أتعرف يا طارق ما أكثر شيء يُؤلمني! أنّني سأفارق الدنيا دون أن أصبح زوجتك. هل تعتقد بأنّ الله سيكون سخيّاً معي، ويجعلك نصيبي في الجنّة؟

– لا أحبُّ أن أسمعكِ تتفوّهين بهذه الكلمات التشاؤميّة! ستُشفَين، وستُصبحين زوجتي بإذن الله. لن أُخلف وعدي لك، وسأدعو ربّي أن تكوني من نصيبي في الدنيا والآخرة.

في اليوم التالي، ماتت يسرا. تسلّل ملك الموت إلى غرفتها بحذر. كان حريصاً على أن لا يحسّ به أحد. كان يعلم مدى قسوة سلب روح فتاة في عزّ شبابها، ومن وسط أحبّائها. أخذ روحها ومضى خجلاً، مطأطئ الرأس، دون أن يُحدث ضجيجاً. كانت أمّي نائمة على الأريكة. أحسّت بغريزة الأمومة أنّ روح ابنتها تحلّق فوق رأسها، وأنّها أرادت توديعها قبل أن ترحل عن الدنيا. نهضت أمّي فزعة من مكانها. نظرت في وجه يسرا. كانت صفحة وجهها صافية تعلوها صفرة. أمسكت بيدها. وجدتها باردة. أطلقت صرخة وجع عالية. قمتُ من نومي فزعة. هرعتُ إلى غرفة يسرا. وجدتُ أمّي تبكي بحرقة، وذراعاها تحتضنان جسد يسرا. تسمّرت قدماي عند بابها. كنتُ عاجزة عن التقدّم خطوة إلى الداخل. لم يخطر على بالي ولو للحظة، أنّ أول وجه ميّت سأراه سيكون وجه أختي. شعور مؤلم لا يعرفه إلّا من تجرّع من كأسه. ظلّت صفحة وجهها المستكينة تُرافقني ليالي طويلة. من قال إنّ الزمن قادر على أن يُنسينا أحبابنا الذين رحلوا عنّا! قد تُلهينا تقلّبات الأيّام عن مشاهد الموت التي عشناها لحظة فقدان من نُحبّ، لكنّها تعود إلى سطح ذاكرتنا كلما تعرّضنا لموقف مؤثّر، أو منظر قاسٍ أدمى قلوبنا. كانت كلّ أغراض يسرا معبّأة في حقائب، استعداداً لإرسالها إلى بيت أهل زوجها. فستان عرسها لم يزل مُعلّقاً بمكانه داخل خزانة ملابسها. استجمعت أمّي شجاعتها، واحتسبت فراق ابنتها عند ربّها. بعد مرور شهر على وفاة يسرا، جمعت أغراضها، وتبرّعت بأشيائها كافة، بجانب فستان زفافها، لجمعية البرّ الخاصّة بالفتيات اليتيمات. بقيت أمّي تذرف الدمع على يسرا. تنتحب حزناً على ابنتها التي رحلت في عزّ شبابها.

بعد موت أختي يسرا بآثني عشر عاماً، رحلت أمّي. علمتُ أنّها في سنواتها الثلاث الأخيرة، أصابتها المياه الزرقاء بعينها اليسرى. فشل الأطبّاء في إنقاذ العين، وظلّت ترى بعين واحدة إلى أن وافتها المنيّة. بكيتُ بحرقة عليها. كانت أمّي التي لا يُمكن للزمن أن يعوّضني عن فقدانها. لحظة عرفتُ بموتها،

شعرت بألم الفراق، مصحوباً بوخزات ضمير عارمة. تساءلتُ لحظتها... تُرى هل تذكّرتني أمّي في لحظاتها الأخيرة؟ هل نادت على اسمي؟ هل غفرت لي ما سبّبته لها من وجع وخيبة؟ هل سامحتني ومضت وهي راضية عنّي؟ من كان بجانبها وهي تُعاني سكرات الموت؟ هل ماتت وحيدة، أم كان أخي ياسين بجانبها؟ لم تسنح لي الفرصة لوداعها. كنتُ أعيش بأرضٍ بعيدة جدّاً عنها. أتربّص الأخبار بطرقي الخاصّة، وعن طريق شبكات التواصل الاجتماعي، الخاصّة بصفحات الأهل والأقرباء.

5

شعرتُ بوحشة شديدة بعد وفاة يسرا. صرتُ أراها كثيراً في أحلامي. المشهد يتكرّر. أتأمّلها وهي مرتدية ثوب زفافها الأبيض. تمشي متبخترة، وذراعها مُتعلّق بذراع طارق. تنظر باسمة إلى المدعوّات الملتفّات من حولها. فجأة تسقط يُسرا على الأرض. يمدُّ طارق يده لإمساكها من ذراعها. يعجز عن الوصول إليها. تستنجدُ به صارخة. يراها تبتعد رويداً رويداً عنه إلى أن تتلاشى صورتها. قاعة العرس تخفت فجأة أضواؤها. يقف طارق وسط القاعة تائهاً، عيناه تدوران في أرجاء المكان، تبحثان عن أيّ أثر ليسرا. المدعوّات يتجرّدنَ من زينتهنَّ. ألوان ملابسهنَّ تتحوّل إلى اللون الأسود. يعلو صوت العويل والنواح في أرجاء القاعة. أستيقظ مذعورة. العرق يتصبّب من حنايا جسدي. أتتني ذات مرّة، بشكل مختلف. كانت ترتدي فستانها الأخضر الذي ارتدته يوم خطوبتها. كانت تجلس في حديقة بيتنا، وتنظر باسمة إلى الأعلى باتّجاه منزل أهل طارق. كان طارق يقف على سطح منزلهم، ويُلوّح لها بيده. فجأة تختفي يسرا. يُنادي عليها طارق بأعلى صوته. لا يُجيبه سوى الصدى. بكيتُ بحرقة عليها. تحسّرتُ على شبابها الذي لم تعشه. على شمعة عمرها التي ذوت قبل أوانها. تلاشت أحقادي تجاهها. لم أعد أحمل لها ضغينة، ولم تعد تشوبني غيرة منها. تحوّلت مشاعري جميعها إلى أسى دفين لفراقها، وحنين جارف إليها. يدور شريط ذكرياتنا معاً أمام ناظريَّ. أتابعه بقلب مفطور. أتمنّى لو يعود الزمن إلى الوراء، وتسعد يسرا مع الرجل الذي اختاره قلبها. بعد مرور أشهر قليلة على موتها، استعدتُ توازن نفسي. عاد طارق من جديد يشغل مساحة فكري. تملّكتني الهواجس. حاصرتني التساؤلات... ماذا لو طاردته أخرى، ونجحت في الاستيلاء على قلبه؟ ألستُ أحقَّ به من غيري؟ لماذا أترك غريبة

تنتزعه منّي؟ ماذا عن أختي يسرا؟ كيف يُمكنني خيانتها بهذه السهولة؟ أليس في تفكيري هذا، اعتداء على حقوقها، وجرح لكرامتها؟ قرّرتُ بعد صراع مع نفسي، أن أحاول طرح شباكي عليه بجديّة. لقد أضعتُ فرصتي معه مرّة، ولن أتركها تضيع منّي للمرّة الثانية. هكذا قلتُ لنفسي. بدأتُ بمشاغلته. صرتُ أحادثه عبر الهاتف بغرض مواساته. كان حديثه منصبّاً طوال الوقت على يسرا. يرفض التصديق أنّها رحلت وتركته. أخبرني عن مساعي أهله لتزويجه، كي يخرج من دائرة أحزانه. كنتُ أكظم غيظي، مُردّدة له أنّ الحياة لا بدّ أن تمضي. كانت سحابة الكمد قد بدأت تنقشع قليلاً من تفكيره. لاحظتُ ذلك في نبرات صوته، وفي طريقة حديثه معي. قرّرتُ المضيّ في خطّتي إلى النهاية. كنتُ مصمّمة على أن يكون طارق لي وحدي. صارحته بحبّي، وبصدق مشاعري تجاهه. شجّعته على التسلل إلى بيتنا، كما كان يفعل مع يسرا. تردّد في البداية. استسلم لإغراءاتي في نهاية الأمر. كانت عواطفه لم تزل هشّة، سهلة القيادة. عند أوّل لقاء، أخذته في أحضاني. تعمّدتُ كسر حاجز الكلفة بيننا. كنتُ البادئة بتقبيله. كنتُ أرغب بشدّة في انتزاع يسرا من قلبه. حرّكت ذكورته النائمة. جعلته يتذوّق قليلاً من حلاوة أنوثتي. سمحتُ له بأن يلمس طراوة نهديَّ اليافعين. كنتُ أجيد بالفطرة لعبة التشويق. أتمنّع عنه، كلما وجدته متلهّفاً لضمّي. أقترب أكثر إذا أحسستُ بأنّه يُريد التقوقع داخل ذكرياته. كنتُ آخذ هاتف البيت إلى غرفتي في جُنح الليل. أقرّب سمّاعة الهاتف من جهاز التسجيل الخاصّ بي. أضع فيه كاسيت، يتضمّن أغاني جميلة اكتسحت وقتها الشارع العربي، كأغنية «عبرت الشط على مودك وخلّيتك على راسي. بكل غطّه أحس بالموت وبقوة أشهق أنفاسي وسمّيتك أعز ناسي... الخ»، للمطرب العراقي كاظم الساهر. وأغنية «تصدّق والّا أحلفلك. عجزت بلساني أوصفلك. نعيم الحبّ في وصلك. وانت كريم من أصلك. وشوف قلبي على يدي. وهوه أغلى ما عندي. وتبغى زياده في حبّي. أجيب لك قلب تاني منين»، للفنّان طلال مدّاح. كان هناك غيرها من الأغاني العاطفية، أبعث له من خلالها رسائل ضمنية تُعبّر عن مقدار ولعي وتعلقي به. كنتُ أسكبها في أذنيه كلّ ليلة تقريباً. يظلّ طارق في تلك اللحظات ممسكاً بسمّاعة الهاتف، ينصت باهتمام لها. نجحت خطّتي. بعد مرور ستة أشهر على وفاة يسرا، سيطرتُ على دنيا طارق. كان يحكي لي تفاصيل يومه. صارحني في واحد من اتّصالاتنا الهاتفيّة،

برغبته في الارتباط بي. قال لي: «لقد فاتحتُ أمّي برغبتي في الزواج بكِ. فرحت كثيراً. سنحضر إلى بيتكم يوم الجمعة بعد صلاة المغرب إن شاء الله. أمّي ستُهاتف أمّكِ غداً».

أن أحصل على ما كنت أحلم به، شعور لا يُضاهيه أيّ شعور. هي أحاسيس ممزوجة بنكهة الانتصار، ولذة الاستمتاع بنشوة الحبّ، الذي طالما حلمتُ به. كنتُ متهيّبة من ردّة فعل أمّي. استجمعتُ شجاعتي. دخلتُ عليها تلك الليلة، غرفة نومها. كانت تتهيّأ للنوم. قلت لها وأنا أنظر إلى الأرض، مُحاولة مُداراة نبرة فرحتي: «أمّي، طارق يُريد أن يتقدّم لخطبتي». شهقت أمّي. انهمرت الدموع من عينيها. قالت بصوت متقطّع: «هل تُريدين أن تتزوجي الرجل الذي كانت أختكِ تُحبّه». رددتُ عليها، وأنا مائلة برأسي على صدرها: «وهل تعتقدين يا أمّي أنّ من السهل عليَّ أخذ مكان أختي! من المستحيل أن أنساها، لكن يا أمّي الحيّ أولى من الميّت. طارق شاب طيّب، وقد أراد الله أن يكون من نصيبي». انفرطت في النحيب. قالت بصوت مُنكسر، وشفتين مرتجفتين: «جعله الله يا بنتي زوج الدنيا والآخرة. الله هو من يكتب مُقدّرات العباد، لا دخل لنا في تدابيره».

لا تُعطي قلبكِ لرجل شحيح المشاعر... امنحيه لمن يجعلكِ تبتسمين... تضحكين... تُلامسين بأصابعك عنان السماء... رجل تتعلقين بذراعه، وترقصين معه تحت ضوء القمر... الرجل الذي يسرق نضارة بشرتك في وضح النهار، أوليه ظهركِ غير آسفة عليه.

1

أغلقت جاسمين المفكّرة. وضعتها على المنضدة بجوارها. «ما كمّ الأتراح التي تفوح من بين هذه السطور! هل من المعقول أنّ أمّي كانت لها حياة أخرى غير تلك التي أعرفها؟» تساءلت جاسمين في سرّها. شعرت بالنعاس يُداعب جفنيها. استسلمت لإغراء النوم.

استيقظت عند العاشرة صباحاً، مُتكدّرة المزاج. صنعت ساندويتش من التوست المحمّص. وضعت فيه شريحة من جُبن الشيدر. صبّت لنفسها كأساً من قارورة عصير البرتقال الموضوعة برفّ الثلاجة. اتّجهت ناحية الشرفة. جلست على الكرسيّ الخيزران الذي تعوّدت والدتها الجلوس عليه. أخذت تقضم قطع الساندويتش، وترتشف العصير ببطء. نظراتها مرميّة صوب أعشاب الحديقة التي غدت جافة، صفراء، كعادتها عند قدوم فصل الخريف. شردت في مضمون مفكّرة والدتها. كانت صدمة الدهشة والاستغراب تستحوذ عليها. «لماذا آثرت أمّي أن أطّلع على هذه الأسرار التي تحتويها مُفكّرتها بعد موتها، وليس وهي حيّة تُرزق؟ هل لأنّها تتضمّن تفاصيل صادمة، تحرّجت من أن تعترف لي بها في حياتها؟». قطع حبل أفكارها رنين جوّالها. كان ستيف على الخطّ الآخر. أخبرها بأنّه سيمرّ عليها عند الثانية عشرة. وافقت على الفور. شعرت بحاجتها للخروج من دوّامة الحيرة التي وقعت فيها منذ أن بدأت قراءة هذه المفكّرة. أخرجت زفيراً طويلاً. ألقت على نفسها جملة من التساؤلات «هل أخبر ستيف عنها؟ هل من حقّي أن أفشي أسراراً ائتمنتني أمّي عليها؟ لمَ لا أنتظر حتّى أفرغ منها، وبعدها أقرّر ماذا سأفعل. لا أعرف حتّى الآن إن كانت أمّي تتحدّث عن نفسها، أم عن امرأة قريبة منها يهمّها أمرها؟ هل إخباري لستيف عنها، سيُشكّل فارقاً لحياتي؟».

دقَّ ستيف جرس الباب الخارجي. وصل في الموعد المحدّد. أوقفت جاسمين سيل تساؤلاتها. فتحت له على الفور. كانت ترتدي شورتاً من الجينز الفاتح اللون. وضعت فوق جذعها العلوي قميصاً متداخل الألوان، يغلب عليه اللونان الأبيض والأرجواني. ارتدت فوق القميص جاكيت من الجينز بكمّين طويلين. كان الطقس هذا الصباح قد بدأ يميل للبرودة. حيّاها ستيف وركب بجانبها في سيّارتها. اقترحت عليه أن يقضيا اليوم في منتجع بوكاراتون Waldorf Astoria المفضّل لديها. كانت ترتاده بين آونة وأخرى مع والدتها بنهاية العطل الأسبوعيّة. قضيا وقتاً جميلاً. تناولا غداءهما في أحد المطاعم المنتشرة هناك. شعرت جاسمين بالارتياح. كانت تشعر بدفء مشاعر ستيف. تُثمّن صداقتهما. سألها فجأة ستيف وهما يلتهمان كوبين من الآيس كريم:

– هل ستعودين بداية الأسبوع المقبل إلى المدرسة؟

– لا أعرف يا ستيف! أشعر بأنّ فكري مُشوّش، وقد منحتني إدارة المدرسة إجازة لمدّة أسبوع مراعاة لظروفي.

– أرى أنّ عودتك إلى المدرسة ستفيدك كثيراً. ستُخرجكِ من دائرة أحزانك، وستشغلك عن التفكير في الأحداث المؤلمة التي مررت بها. كلّها أشهر قليلة وتتخرّجين. بالمناسبة، ألم تُقرّري بعد أيّ جامعة ستدخلين، وأيّ تخصّص ستختارين؟

– لم أُقرّر بعد! حتّى الآن. أنا حائرة. مبدئيّاً أودّ الالتحاق بجامعة كولومبيا.

تحولّت سحنة ستيف، بدا عليه الضيق، علّق قائلاً:

– هذا يعني أنّكِ سترحلين عن بوكاراتون! جاسمين، أنا بالفعل أحبّكِ، وأتمنى أن تبقي بالقرب منّي، ولا تبتعدي عنّي.

– ستيف، أنت تعلم بأنّني أُقدّر صداقتك، ولكنّي أعتبرك أخاً لي. لا أريدك أن تغضب منّي. أنا لا خبرة لي في الحبّ، لكنّ الصداقة في رأيي أقوى بكثير من الحبّ، الذي من الممكن أن ينتهي في لحظة خاطفة، عند تعرّضه لأيّ منزلق خطر. أنا حريصة على صداقتنا، ولا أريد أن أفقدك، وأتمنّى أن تجد الفتاة التي تستحقّك وتبادلك حبّاً بحبّ.

طأطأ برأسه صوب الأرض، ثمّ رفعه قائلاً، ونظراته تطفح بالهوى:

– عندي أمل أن تتحرّك مشاعرك تجاهي ذات يوم. لن أفقد يوماً هذا الأمل.

ربّتت جاسمين يده. أخذا يتسكّعان في أرجاء المنتجع. كانت الساعة قد قاربت على السابعة. أبدت جاسمين رغبتها في المغادرة. جلس ستيف بجانبها صامتاً. ودّعها عند باب بيتها، متمنّياً لها ليلة هادئة. دلفت إلى الداخل. اصطدمت روحها بصمت المكان من جديد. دخلت إلى المطبخ. فتحت باب الثلاجة. شربت كوباً من الحليب كي يُساعدها على النوم. صعدت إلى غرفتها. غيّرت ملابسها. ارتدت منامتها. تمدّدت على سريرها. وضعت الوسادة خلف ظهرها. أسندت جذعها العلوي عليها. أخرجت زفرة حارّة. رمت بصرها تجاه المفكّرة. أمسكتها بين يديها. فتحتها على الصفحة التي توقّفت عندها.

2

تزوّجتُ بطارق بعد تخرّجي من الجامعة عام 1994 م. كان شرط أبي تأجيل زواجي لحين حصولي على شهادة «البكالوريوس». حفل زواجنا كان مُقتصراً على الأهل، والأقارب، ومعارف أمّي، وصديقاتي المقرّبات في المدرسة. استأجر والدي قاعة الأعراس الصغيرة، الكائنة بفندق البلاد الواقع بطريق الكورنيش. اخترتُ بنفسي الورود التي ستوضع خلف الأريكة التي سأجلس عليها أنا وطارق. اشتريتُ ثوب زفافي من أحد المتاجر بسوق المساعديّة. كان المتجر متخصّصاً في جلب فساتين الأفراح من باريس. اخترت طرحة من التل الأبيض مُصمّمة على عدّة طبقات، متوسّطة الطول. أطرافها مُحاطة بشريط من الدانتيلا. كان الثوب معتدل الثمن. أعجبني. رأيتُ فيه نفسي. كنتُ كلما سألتُ طارق عن رأيه في تفاصيل الحفل، يُجيبني «اعملي ما ترينه مناسباً». كانت تنتابني أحياناً مشاعر غريبة، بأنّ طارق غير مكترث بليلتنا. كنتُ أقبض بقوّة على هذا الشعور المخيف، وأقذفه بعيداً عن بالي. كنتُ متمسّكة بطارق لآخر لحظة في عمري.

ليلة عُرسي، طلبت من مُصفّفة الشعر أن تعمل لي تسريحة بسيطة، تُلائم تقاسيم وجهي. اقترحت أن تتركه مُنسدلاً على كتفي. رأت أنّها تُلائمني أكثر. كانت الفرحة التي تتراقص في قلبي قد أضفت جمالاً على صفحة وجهي. صاحباتي أكّدن لي أنّني تفوّقتُ في اختياراتي كافة. أنّ إطلالتي كانت باهرة. كانت دقّات قلبي تتسارع مع تزايد دقات طبول الزفّة. كنتُ غير مُصدّقة أنّني، بعد ساعات قليلة، سأكون في أحضان حبيب عمري. انتهى الحفل الساعة الثالثة فجراً. رافقتنا أمّي إلى جناح غرفتنا في نفس الفندق. نظرت في وجهي بحنان. ضمّتني إلى صدرها. تمنّت لي من كلّ قلبها، أن يكتب الله لي السعادة

في حياتي الجديدة. ودّعت طارق قائلة: «لقد تركتُ ابنتي أمانة لديك. أعلم بأنّك من بيت طيّب وستُحسن عشرتها». أصبحنا بمفردنا. تبادلنا النظرات في صمت. خلع طارق عباءته السوداء. أزاح شماغه وكوفيّته عن رأسه. علّقهما بعناية داخل دولاب الملابس. جلستُ على طرف السرير. جلس بجانبي. أمسك بيدي، وقبّل باطن كفّي. قلتُ له، والابتسامة تملأ ملامح وجهي:

– هذه أجمل ليلة في حياتي. عدني بأن تظلّ معي إلى نهاية عمري.

ابتسم معلّقاً:

– أعدكِ بأنّني لن أخذلك.

ساعدني على تحريري من ثوب عرسي. كنتُ أذوب شوقاً لمعانقته لي. أغمضتُ عينيَّ. أخذني بين ذراعيه. سكنت روحي بقربه. سألته لحظتها:

– هل تحبّني؟

– بالطبع أحبّك.

كان سؤال فضولي يقف على طرف لساني، أودّ أن أطرحه عليه... هل أنسيتك أختي، أم لا تزال عالقة بجدار قلبك؟ طردتُ السؤال في الحال من ذهني. هل يجب أن أكون بهذا الغباء؟ لن أُعكّر صفو ليلتي الأولى بذكرها. يكفيني أنّني أملك الحاضر والمستقبل. كنتُ تلك الليلة كطير يُحلّق بجناحيه في سماء صافية، خالية من الضباب القاتم. كنتُ كالغريق الذي وصل إلى الشاطئ بعد أن فقد الأمل في النجاة من أمواج البحر العاتية.

كان طارق قد درس طبّ أسنان في جامعة الملك عبد العزيز. تخرّج قبلي بسنتين. تدرّب بعد تخرّجه بمستشفى الملك فهد العام. جاءته الموافقة على الابتعاث إلى الولايات المتحدة الأميركيّة، في جامعة هارفارد بمدينة بوسطن. كان راغباً في التخصّص في زراعة الأسنان. وقتنا كان ضيّقاً. كان يجب علينا السفر مُبكراً لترتيب أمورنا هناك، قبل أن يبدأ طارق دراسته. اقترحتُ عليه قضاء أسبوع من شهر عسلنا في القاهرة، وأسبوع آخر في بيروت، ثمّ نُقفل عائدين إلى جدّة لتوديع أهالينا قبل التوجّه لأميركا. رحّب باقتراحي. كانت تلك المدّة القصيرة من أحلى أيّام حياتي. طلبتُ من طارق أن يحجز لنا في فندق ماريوت الواقع بحيّ الزمالك. كنتُ متشوّقة لاستعادة جزء من ذكرياتي. كان أبي قد اصطحبنا إلى القاهرة مرّات عدّة ونحن صغار. كانت الزيارات تقتصر في الأغلب على عشرة أيّام. أتذكّر عندما كنتُ في الرابعة عشرة من عمري،

أقمنا بفندق ماريوت. حجز أبي غرفة لي وليسرا، مُفضّلاً حجز جناح له ولأمّي، كي يبقى ياسين معه، ولا يغيب عن ناظريه. كنتُ أنا ويسرا ننزل في الصباح الباكر إلى حوض السباحة التابع للفندق. نظلّ نعوم فيه إلى منتصف النهار. أتذكّر شقاوة يسرا، وهي تغطس تحت الماء، ثمّ ترفع رأسها، وترشّني بحفنةٍ منه. أتذكّر ضحكاتها الصافية وهي تراني أحاول اللحاق بها لأردّ لها مقالبها. أتذكّر عند اقتراب الشمس من المغيب، كنّا نرتدي أفضل ثيابنا، ونتسابق في حديقة الفندق الواسعة. لم تُفارقني يسرا طوال تلك الأيّام. ظللتُ أتخيّلها تسير خلفي كظلّي، في ردهات الفندق، وتُلاحقني بأرجاء الحديقة.

قبل سفرنا إلى بيروت، اقترح عليه عدد من أصدقائه السكن بفندق راديسون الكائن بوسط المدينة. كان اقتراحهم موفّقاً. رتّبت لنا إدارة الفندق منذ وصولنا، رحلات لزيارة الأماكن الشهيرة. ذهبنا في نزهة بالتليفريك. قمنا برحلة إلى مغارة جعيتا. جلنا في منطقتي عاليه وبرمّانا. أكلنا في أشهر مطاعم بيروت. كانت تلك المدينة اكتشافاً جديداً بالنسبة لنا. لم يكن أيٌّ منّا قد وطئت قدماه مدينة بيروت من قبل. كنّا نُحب التسكّع على الكورنيش صباحاً. أتشبّثُ بذراعه. يمرّ الوقت سريعاً. نحسُّ بالجوع. نتوقّف عند أحد المطاعم الصغيرة المنتشرة فيه. كنتُ ألمح طارق أحياناً يرمي ناظريه باتّجاه صخرة الروشة. في واحدة من المرات توقّف أمامها. أخذ يتأمّلها. شرد بذهنه بعيداً. لمحتُ سحابة حزن مرّت سريعة بمساحتي عينيه. سألته لحظتها والفضول يغمرني:

– ما سرّ اهتمامك بهذه الصخرة، كأنّ هناك علاقة وثيقة بينكما؟ أراكَ مشدوداً لها.

– أنا مُعجب بشموخها ومنظرها الآسر. كيف أصبحت رغم جمال منظرها، قُبلة لموت اليائسين من الحياة؟ تُرى كم جسداً تحطّم على صخورها؟ كم روحاً ألقت أسرار يأسها تحتها؟

كانت نبرة صوته تشبه مزماراً يُخرج نغمات مُوجعة بائسة. تساءلتُ في سرّي إن كانت يسرا لم تزل تستحوذ على جزءٍ من قلبه، أم أنّها لم تُفارق فؤاده قطّ! كان طارق بطبعه قليل الكلام. أنتزع منه الكلام انتزاعاً. كان يُغرقني بسخائه في لحظاتنا الحميميّة. يُعوّضني وقتها عن ساعات صمته. كان القلق يُصيبني أحياناً. أتأمّله وهو يغطُّ بالنوم. لا أصدّق أنّه أصبح زوجي، وأنّه

مستلقٍ بجواري. يتسلّل فجأة هاجس لقلبي! أتساءل بقلب واجف «هل نجحتُ بالفعل في نزع أختي من فؤاده، ومحو ذكراها للأبد؟ هل حقاً قلب صفحة يسرا، أم أنّ الأمر برمّته ينحصر في أنّ الحيّ أبقى من الميت؟». أقترب من وجهه. أستنشق أنفاسه. ألتصق به. أشمُّ عرق إبطيه. أُغمض عينيَّ. رائحة جسده تتسلّل لفتحتي أنفي. ترتخي أعصابي. أروح في النوم.

انشغلنا بعد عودتنا من بيروت بالتحضير للسفر. كنتُ سعيدة أنّني حقّقت حلمي، وأنّ طارق أصبح لي وحدي. كانت مدّة بعثتنا ستمتدّ لسنوات عدّة. آثرنا أن نؤجّل تأسيس بيت الزوجيّة لحين عودتنا النهائيّة من أميركا. تركت أمّي غرفتي على حالها. قام والداه بنفس الفِعل. اتّفقوا على أن يستقبلونا فيهما، عند زيارتنا لجدّة. حرصتُ تلك الأيّام على إخفاء «ألبوم» صوري داخل خزانة ملابسي، وإيصاده بالقفل. كان أغلبه يتضمّن صوري مع يسرا. حرصتُ على أن أبعد طارق عن أيّ ذكرى تربطه بالماضي. علّقت على جدار غرفة نومي صورة كبيرة لنا من صور زفافنا. أحياناً يُناديني الحنين. أشعر بشوق جارف ليسرا. أُخرج «الألبوم» من رفّ خزانتي العلوي. أتأمّل صورنا معاً. هذه الصورة، ونحن مرتديتان الزيّ المدرسي بفناء مدرستنا. تلك في إحدى رحلاتنا إلى مدينة الطائف في ربوع منطقة «الهدا». كنّا نتلاصق كي نُدفّئ جسدينا من لفحات الطقس البارد الذي تمتاز بها منطقة «الهدا». وأخرى ثالثة، في عيد ميلاد أخي ياسين. وأنا واقفة بجواره، ويسرى واقفة على الجانب الآخر، وهو يُطفئ شمعات عيد ميلاده السادس. ورابعة، وسط أحد البساتين بالمدينة المنوّرة، بصحبة أبي وأُمّي ويسرا وياسين، حينما كنّا نزورها في إحدى عُطل عيد الأضحى. كانت هناك صور أخرى كثيرة، أخذها لنا أبي في العطل السنويّة التي كنّا نقضيها بمدينة القاهرة.

3

وصلنا إلى مدينة «بوسطن» نهاية شهر يوليو. الطقس في ذلك الوقت يكون رطباً. كانت أسعار الشقق في بوسطن غالية الثمن. بفضل المبلغ الذي أعطاه والد طارق لابنه، إضافة إلى مكافأة البعثة، استطعنا شراء ما نحتاج إليه، واستئجار شقة في منطقة Malden التي كان يسكن فيها عادة الطلبة المبتعثون السعوديون. كانت المنطقة قريبة من مدينة بوسطن حيث تقع كليّات الطبّ التابعة لجامعة هارفارد الكائنة بشارع Longwood Avenue، والتي كان طارق قد تسجّل فيها. كانت الشقة صغيرة، تحتوي على دورة مياه واحدة، وتتألف من غرفتين متوسّطتي الحجم، مُلحقتين بصالة صغيرة، مفتوحة على شرفة معقولة المساحة، تطلُّ على الشارع الرئيسي. من الجهة الشرقية للصالة، يُوجد مطبخ صغير. لم يكن في الشقة سوى الأشياء الأساسيّة. لم نكن نُريد إهدار كلّ النقود التي بحوزتنا. اشترينا أثاثاً مستعملا. كنتُ أستخدم غسّالة الملابس الموجودة في الطابق السفلي للبناية، التي كان يتشارك فيها أغلبية السكّان. كانت هناك قاعة للألعاب الرياضيّة، يستخدمها طارق بين حين وآخر. أحببتُ موقع الشقة، والمرفقات المتوافرة فيها. استطاع طارق شراء سيّارة مستعملة ماركة «فورد»، تُسهّل عليه ارتياد كليّته.

بعد خروج طارق صباحاً، أستقلُّ القطار أو الحافلة للذهاب إلى وسط مدينة بوسطن. أقصد Kendal Square، أتفرّج على واجهات متاجر الملابس المنتشرة فيها من دون أن أقتني شيئاً منها. أذهب أحياناً إلى السينما لمشاهدة فيلم جديد نزل في دور العرض. صباح السبت، نذهب أنا وطارق إلى السوبرماركت لشراء تموين الأسبوع. كنّا نُفضّل الذهاب إلى منطقة Outlet القريبة من بوسطن. كانت تتميّز بأسعار منخفضة في الملابس والمستلزمات

الأخرى. كان على الدوام بداخلنا حنين للأكلات العربيّة. كان الخضار مثل الملوخيّة وغيرها، والمعلّبات والبهارات العربيّة، متوفّرة في البقالات العربيّة بوسط المدينة. كانت أمّي قد سجّلت لي في دفتر صغير، طريقة طبخ كلّ وصفة من وصفاتنا العربيّة على حدة. أستعين بها حين يشتهي طارق أكلة من أكلاتنا. كانت حياتنا هادئة. لم تكن تتخلّلها مشاكل كبيرة. كنتُ سعيدة. حصلتُ على ما أحلم به. رجل أحببته وتمنّيتُ أن يكون من نصيبي. استقرار عاطفي. لم أدع الشك يُنغّص عليَّ حياتي. قرّرتُ أن لا أترك ذكرى أختي يسرا تقف حائلاً بيني وبين زوجي. تعرّفنا بعد وصولنا بشهرين إلى زوجين سعوديين. عائلتاهما من الرياض. انتقلا للسكن بالشقة المقابلة لنا. حضر الزوج إلى بوسطن للدراسة برفقة زوجته قبل ثلاثة أعوام من حضورنا. كان لديهم طفل اسمه محمد. ولد جميل بعمر السنتين. الزوج طبيب أسنان مثل طارق، جاء للتخصّص في جراحة الفم والفكين. زوجته اسمها يارا. كانت دمثة الخلق، كريمة في بيتها. تخرّجت مثلي من قسم التاريخ. حصلت على شهادتها الجامعيّة من جامعة الملك سعود، كليّة الآداب. كانت صدفة عجيبة! لكنّ يارا كانت بعكسي، ترفض أن ترمي اتهاماتها بدون أدلّة وبراهين. كانت مقتنعة بأنّ لكلّ زمن رجاله، ولكلّ انتصار ظروفه وملابساته. لاحظت ذلك منذ لقاءاتنا الأولى. سألتني ذات مرّة بنبرة تحدٍّ:

– من أين بنيت أحكامك؟ نحن لم نكن موجودين!

– لكنّك لا تُنكرين أنّ الموجود في مناهجنا التي درسناها، شيء مُختلف عمّا كتبه المستشرقون والمؤرّخون الغربيّون.

– أوافقكِ بعض الشيء على ما تقولين، لكن لا تُوجد حقائق ثابتة في تاريخ الأمم. لا تنسي أنّ التوجّهات السياسيّة، والأنظمة الدكتاتوريّة، والانتماءات الدينيّة، لا بدّ أن تفرض نفسها على أقلام المؤرّخين! من وجهة نظري، قلّة من المستشرقين التزموا بالحياد عند كتابة تاريخ منطقتنا العربيّة تحديداً.

كانت نقاشاتنا ممتعة. نمت صداقتنا سريعاً. كنّا نلتقي أنا وهي برفقة زوجينا في العطل الأسبوعيّة، نحتسي القهوة في أحد المقاهي بشارعنا. أحياناً أخرى كنّا نذهب إلى بوسطن، نتناول طعام الغداء في أحد المطاعم المنتشرة في شارع سالم، التي تعجُّ بالجالية الإيطاليّة. نتّفق أحياناً على قضاء يوم الأحد بحديقة «كومون» الشهيرة. هذه الحديقة التي لها طابع خاصّ عند السود

الأميركان من أصول أفريقيّة، لكونها مرتبطة بالخطابات التي كان يُلقيها فيها «مارتن لوثر كينغ»، زعيم الزنوج.

سألتني يارا ونحن نتمشّى في الحديقة: «ما رأيكِ في مارتن لوثر كينغ؟ هل كان مغفّلاً حين ضحّى بحياته من أجل تمسّكه بمطالب قومه؟ هل تظنّين أنّ على الإنسان أن يُقدّم نفسه قرباناً لمبادئه التي يؤمن بها، أم عليه أن يمضي في طريقه إذا اكتشف أنّ التيّار المعاكس قد يجرفه بعيداً؟ إذا سألتني عن نفسي! أنا مستعدّة لأن أهدر عمري كلّه، من أجل الوصول إلى ما أريده. لم أتقبّل طوال عمري فكرة الاستسلام».

كنّا نتبادل الأحاديث بودٍّ وسلاسة. نحكي لبعضنا عن آخر الأخبار التي يجري تداولها. من النزهات التي كنتُ أفضّلها، الركوب بجانب طارق في القارب الشراعي في نهر تشارلز. من الذكريات التي لا أنساها، رحلتنا إلى جزيرة جورج. معالم المكان كانت تحمل بصمة البريطانيين إبّان احتلالهم لأميركا. كنتُ منبهرة بكلّ هذه التفاصيل التاريخيّة، التي تعرّفتُ إليها عن قُرب.

أخبرتني يارا أنّ صلة قرابة تربطها بزوجها. أنّه ابن عمّها. اتّفقت عائلتاهما على أن يكون كلّ منهما للآخر، عندما يصلان إلى سنّ الزواج. كانا متقاربين عمراً. صارحتني بعد أن توطّدت علاقتنا، أنّها منذ صغرها، كانت تشعر ناحيته بمشاعر الأخوّة. تعوّدت أن تراه نصب عينيها. كبُر كلّ منهما أمام الآخر. فتحت لي قلبها. قالت لي:

– تمنّيّتُ في قرارة نفسي، أن لا يكتب الله لي هذه الزيجة. قبل ليلة زفافي بأيّام، بكيتُ كثيراً. كان قلبي يرفضه. لم يكن رفضي لشخصه! كنتُ أحبّه كأخ وكقريب، لكن ظلَّ بداخلي أمل، أن يظهر فارس أحلامي في اللحظات الأخيرة، ويُخلّصني من هذه الزيجة. تمنّيتُ لو التقيتُ برجل أعيش معه تلك الأحاسيس الجارفة، التي كنتُ أقرأها في الروايات الرومانسيّة. كم أنتِ محظوظة يا حياة. قلّة من النساء من تضع الأقدار في طريقها حبّاً يظلُّ يُرافقها حتّى نهاية عمرها.

علّقتُ على كلامها، قائلة:

– الحب كائن غريب يا يارا، ربّما يظلُّ دهراً مختبئاً داخل كهف من كهوف الحياة، ونكون محظوظين حين يُفاجئنا بوجوده، بعد أن نكون قد يئسنا، لحظتها نرمي أنفسنا تحت أقدامه، مرحّبين به. وفي بعض الأحيان نظلُّ ندور في

ساقية الحياة، أملاً في أن نلمحه نائماً تحت شجرة وارفة، إلى أن تُدمى أقدامنا من البحث عنه! وأحياناً ثالثة، نكتشف أنّه كان طوال الوقت معنا، يقبض على أيدينا. نعم، أنا امرأة محظوظة لكوني التقيتُ بحبّي في مُقتبل شبابي، ولأنّ الله لم يكن قاسياً معي ويهمل أمنيتي في أن يُصبح طارق زوجي.

سألتني:

– هل ينتابك أحياناً الخوف من الغد المجهول، رغم أنّ الله فضّلك على أُختك التي كانت قاب قوسين من فرحتها، ومنحك السعادة التي يئستِ ذات يوم من تحقيقها؟

– نعم، أحسُّ أحياناً بقلق لا أعرف مصدره! من صفاتنا كبشر، الحنين لماضينا بدون أن نعرف سبباً لذلك، وربّما طارق مُشتاق لماضيه مع أختي! لا أحد يملك بطاقة أبديّة للحبّ! لكن يكفيني أنّني أملك الحاضر والمستقبل معاً.

استرسلتُ في كلامي ليارا:

– هناك سؤال فضولي، يقف على طرف لساني... هل تغيّرت الحال مع ابن عمّك بعد أن جمعكما سقف واحد؟ ماذا عن ابنكما محمد؟ ألم يقوِّ خيط الوصال بينكما؟ الأمومة هبة عظيمة من المولى عزَّ وجلّ.

– لا أعرف يا حياة! الله هو الذي يُقلّب القلوب. لقد رضيت بنصيبي. يكفي أنّني أشعر بالأمان مع زوجي. لقد منحني كلّ شيء، لكنّ فؤادي عنيد، يأبى الاستسلام للنصيب! أحسُّ أنّه أضحى راكداً كالبحيرة الآسنة، لا ريح تُحرّكه، ولا هواء عليل يُلاعب سطحه! كلّ ليلة وأنا أدسُّ جسدي داخل فراشي، أنظر إلى قسمات زوجي الطيّبة. أدعو الله في سرّي، أن يُنبت حبّه في قلبي. كم أخاف أن يُعاقبني الله، بعد أن أغدق عليَّ كلّ هذه النعم.

ليلتها، وأنا آوي إلى مخدعي، لا أعرف لماذا حضرت يسرا بقوّة في خاطري. أحطتُ رقبة طارق بذراعي، ودفنتُ وجهي داخل صدره.

4

تأخّر حملي. لم أكن أتناول حبوب منع حمل منذ زواجي بطارق. أصابني التوتّر. ذهبنا إلى الطبيب للتأكّد من أنّنا سليمان. قام بعمل فحوص كاملة لنا. أكّد لنا أنّ لا علّة لدى أحدٍ منّا. كنّا كلّ عطلة صيفيّة نُسافر إلى جدّة لتمضية شهر مع الأهل والأقارب. أظهرت لي أمّي قلقها من تأخّر حملي. طمأنتها بأنّ كلّ شيء على ما يُرام. في السنة الثالثة لزواجنا، حملتُ بابنتي فتحية. أخبرتُ أمّي عبر الهاتف. طارت فرحاً. حثّتني على القدوم إلى جدّة كي ألد هناك. أقنعتها بأن تأتي هي إليَّ وتحضر ولادتي. لم أرد ترك طارق بمفرده، إضافة إلى أنّني كنتُ أرغب في أن تحصل ابنتي على الجنسية الأميركيّة. مكثت أمّي عندي شهراً، مُقرّرة بعدها العودة إلى جدّة. رجوتها أن تُطيل مكوثها. أخبرتني بأنّه لولا احتياج أخي وأبي إلى وجودها، لبقيت معي مدّة أطول. وجودها تلك الفترة خفّف عنّي الكثير من الضغوط التي تعرّضتُ لها كأمّ تُنجب للمرّة الأولى. كنتُ أبكي كثيراً، مُظهرة تبرّمي من هذه المسؤولية الجديدة، فتضحك قائلة: «الأمومة صنيعة ربانيّة عظيمة، تتجسّد فيها أسمى تضحيات المرأة،، لهذا جعل الجنّة تحت أقدام الأمهات». كانت تطبخ لنا الغداء، وتُساعدني في رعاية ابنتي. كانت فتحية كثيرة البكاء، والصراخ، أتركها مع أمّي لأنال قسطاً من النوم. سمّى طارق ابنتنا فتحيّة على اسم والدته. تكلّلت سعادتي بوجود ابنتي في حياتي. تعلّق طارق بابنته منذ أن خرجت للنور. يتّجه إلى غرفتها فور وصوله من الجامعة. يظلّ يحملها ويلاعبها إلى أن تغفو بين ذراعيه.

كان طقس بوسطن حارّاً مشبّعاً بالرطوبة صيفاً، ومزعجاً جدّاً في الشتاء. تصل درجة البرودة إلى أربعين تحت الصفر في أغلب الأحيان. كنتُ أجد مُتعة في جرف الثلج المتراكم عن سيّارتي الفيات الصغيرة المستعملة التي أهداها

لي طارق بعد إنجابي لابنتي فتحيّة. شجّعني على تعلّم القيادة. كنتُ أسير بسيّارتي بين الطرقات المكدّسة بالثلوج، وقلبي يشعر بدفء الحبّ الذي يملأ كياني.

بدأ الشتاء يُلملم قسوته ويرحل، واعداً بأن يفرض نفسه مع حلول العام المقبل. أقبل الربيع. رافقت قدومه تفتّح براعم الأزهار، مصحوبة برائحتها الزاكية التي فاحت بكلّ الحدائق. الطقس كان يُشجّع على الخروج، والتمتّع بالهواء العليل.

لم ترَ يارا ابنتي فتحية. كان زوجها قد أنهى فترة ابتعاثه أثناء فترة حملي، وعاد بأسرته إلى السعوديّة. تركت يارا خلفها فراغاً كبيراً. أشعر باشتياق لحواراتنا ونزهاتنا. قدوم فتحيّة ملأ حياتي وعزّز حبّي لطارق. كنتُ أسأله بين حين وآخر: «هل تحبّني كما أحبّك؟»، فيبتسم في وجهي مُكرّراً نفس العبارة: «بالطبع أحبّكِ. أنتِ زوجتي، وأمّ ابنتي. لا حرمني الله منكما». أبتسم. تُرضيني هذه العبارة المقتضبة. كان طارق يعود يوميّاً قُرب الخامسة. أنشغل أثناءها بتجهيز طعام الغداء، والعناية بفتحيّة.

صيف العام الرابع لم يكن عاديّاً. كانت فتحية تقترب من عامها الأول، وترافقنا للمرّة الأولى إلى السعودية. الكلّ كانوا فرحين بها. كان والداه ووالداي مشتاقين لرؤية حفيدتهم. أمضينا شهراً في جدّة قضينا نصفه في بيت أبي، ونصفه الآخر عند والديه. أمضينا أمسيات جميلة. انشغلنا طوال تلك الفترة بتلبية عزائم الأهل. كانت أمّي تُشاركني مسؤولياتي تجاه ابنتي كعادتها، والأيّام تمرّ بسرعة البرق.

كانت ابنتي فتحيّة قد أنهت عامها الثاني، وولجت إلى عامها الثالث حين سجّلتها في حضانة قريبة من مسكننا، فأصبح لديَّ وقت فراغ طويل. اشتكيتُ لطارق من الملل الذي صرتُ أشعر به. اقترح عليَّ دراسة شيء جديد.

قال لي:

– فكّري في هواية تحبّينها، ولم تتح الفرصة لك لكي تتعلّميها.

سرحتُ هنيهة، وأجبته:

– أحبّ تصميم الأزياء. أيّام المدرسة كنت أستمتع بحصص التدبير المنزلي.

– إذن بإمكانك التسجيل بمعهد أو مركز متخصّص. ستصقلين موهبتك بالدراسة، وتُصبحين مستقبلاً على دراية كاملة بها، خاصّة أنّ المشرفين على

مثل هذه المراكز يتمتّعون بقدر عالٍ من الحرفيّة. اغتنمي فرصة وجودنا هنا.

تمعّنتُ بكلام طارق. تخيّلتُ نفسي بعد عودتنا النهائيّة إلى جدّة، أنجح في تأسيس علامة تحمل اسمي في مجال تصميم الأزياء. كنتُ مقتنعة بأنّ من الصعب عليَّ فرض نفسي في بلد كأميركا، يزخر بالمواهب. عزمتُ على أن أبني حلمي في بلدي. صمّمتُ أن أتفوّق في هذا المجال، وأن أبلغ به الآفاق، وأنجح في استقطاب العوائل المعروفة بالسعوديّة، وأحقّق من ورائه الشهرة والمال.

5

أغلقت جاسمين غلافَي المفكّرة. كان النعاس قد بدأ يتسرّب إلى جفونها. وضعت المفكّرة على المنضدة بجوارها. فردت ساقيها. ضمّت وسادتها بذراعها اليمنى، ووضعت ذراعها اليسرى تحتها. سرحت في السطور التي قرأتها... «ترى هل حياة هو اسم أمّي الحقيقي؟ ومن هي فتحيّة؟ هل لي أخت لا أعرف أين هي الآن؟ لماذا أخفت أمّي عنّي كلّ هذه الأسرار؟ هل خافت من ردّة فعلي، ومن إمكانيّة فقداني؟ يُخالجني شك كبير في أنّ أمّي هي صاحبة هذه المفكّرة. مسكينة، كم كانت تحمل من ذكريات ثقيلة بمفردها. ليتها شاركتني هواجسها، ربّما أفلحتُ في التخفيف عنها. أتذكّر أنّها أخبرتني مرّة أنّها كانت تتمنّى طوال عمرها أن تكون لها دار لتصميم الأزياء، تحمل اسمها، وأخفت عنّي الجزء الثاني من أمنيتها. كيف أدركت مُبكّرة أنّ موهبتها لن تستطيع الصمود ومنافسة مصمّمي الأزياء المشهورين، وكيف أنّ صديقتها سوزان اقترحت عليها في ذلك الوقت أن تفتح متجراً لبيع الملابس الجاهزة، خاصّة أنّها تتمتّع بذوق رفيع». أوقفت جاسمين دوران شريط الماضي. رمت صرّة أفكارها بعيداً وراحت في النوم.

استيقظت على هاتفها المحمول. نسيت أن تضعه أمس على الصامت. فوجئت بصوت صديقتها صوفي على الخطّ. تذكّرت أنّ صوفي قد أخبرتها بقدومها إلى بوكاراتون لرؤيتها وقضاء بضعة أيّام معها ومع عائلتها. قالت لها بنبرتها المرحة: «ما زلتِ في سريرك أيّتها الكسولة. أليس كذلك؟ أريدك أن تكوني جاهزة خلال نصف ساعة. مع السلامة».

نفضت جاسمين اللحاف عنها. نهضت بسرعة من السرير. غسلت وجهها. ارتدت بدلة رياضيّة بكمّين طويلين، زيتونيّة اللون من نسيج القطن الممزوج

بصوف خفيف، ماركة Juicy Couture، مطبوع شريط أبيض على جانبي بنطالها. كانت والدتها قد اشترتها لها في عيد ميلادها السادس عشر، ولم تزل على مقاسها، ومُحتفظة برونقها. وصلت صوفي في موعدها. كان الطقس صحواً رغم ميله قليلاً للبرودة. كانت صوفي هي الأخرى ترتدي بدلة رياضيّة باللون الأبيض، ممزوجة بخطيّن من الأبيض والأحمر على جانبي البنطال، وعلى أطراف كمَّي الجاكيت. بدت صوفي كعادتها جميلة متألقة. ضمّت جاسمين لصدرها قائلة لها: «أقدّر مدى خسارتك. فقدان الأمّ لا يُعوّض، لكنّ الحياة تسير بالرغم من كلّ شيء».

لم تُعلّق جاسمين. طأطأت رأسها. قطع حبل أفكارها صوت صوفي مُخاطبة إيّاها بنبرة حماسة: «اسمعي، ما رأيك أن نقضي يومنا في ميامي؟ الطقس لا يُساعد على السباحة، لكن بإمكاننا التسكّع في طريق لنكولن». وافقتها جاسمين على اقتراحها.

ركبت صوفي بجانب جاسمين. أدارت جاسمين تسجيل سيّارتها على قرص أغنية «حبيبي مرّة أخرى» « Baby one more time» لبريتني سبيرز. رمت صوفي صديقتها بنظرة جانبيّة، قائلة: «أعشق هذه الأغنية. نحن متوافقتان في أشياء كثيرة. ذوقنا في الأغاني، وفي الملابس». تابعت ضاحكة: «أرجو أن لا نقع في حبّ رجلٍ واحدٍ أيضاً». ابتسمت جاسمين. نظرت صوفي إليها بحنان. كانت تُريد أن تُخرج صديقتها من دائرة حزنها.

وصلتا إلى ميامي حوالي الواحدة ظهراً. ركنت جاسمين سيّارتها في موقف السيّارات. أخذتا تتسكّعان على أقدامهما. كان الجوّ رائعاً. جلستا في أحد المقاهي المنتشرة على طريق لنكولن. طلبت جاسمين كوباً من الموكا الساخنة. طلبت صوفي نفس الطلب، أشعلت صوفي سيجارة. أخذت تنفث دخان سيجارتها في وجه جاسمين. أظهرت جاسمين تأفّفها. طلبت منها أن تُبعد دخان سيجارتها بعيداً. ضحكت صوفي، مُعلّقة: «يجب أن أعلّمك التدخين كي تكفّي عن توبيخي». بدأت صوفي تحكي لجاسمين عن حبيبها الجديد. أخبرتها بأنّه إسباني الجنسيّة. التقت به في أحد «الديسكوهات» بروما. حكت لها عن وسامته، ولباقته في الحديث، وعن براعته في إشباع رغباتها الجنسيّة. أخبرتها بأنّه يرغب في الزواج بها، لكنّها متردّدة، لا تُريد تحمّل مسؤولية بيت

وأسرة في الوقت الحالي، فهي ما زالت في مرحلة بناء مستقبلها. سألتها جاسمين:

– هل تُبادلينه نفس الشعور؟

– لا أنكر أنّني مُعجبة به، وأنّه هو الآخر مُنجذب لي، لكنّ هذا لا يكفي! أنتِ تعلمين بأنّ فنّ الباليه حبّ حياتي، وحلمي أن أصبح راقصة باليه مشهورة. الحبّ له أولويات يا صديقتي، وفنّ الباليه لا يُمكنني التضحية به من أجل أيّ رجل. الرجال كُثر يا عزيزتي، وذاكرة النساء والرجال غدت هشّة هذه الأيّام.

– صوفي، عليكِ أن تختاري. أمّي دائماً كانت تقول لي، الحياة تُجبرنا على اتّخاذ قرار صعب، لكنّ التمسّك به أفضل من التمسّك بقرار مجهول لا نعرف عواقبه!

– دعينا من هذه الأحاديث. لقد أتينا إلى هنا كي نستمتع بوقتنا. لا أريد أن نُهدر وقتنا في التحدّث عن الرجال. من يدري! ربّما يكون حبيبي في هذه اللحظة يُضاجع فتاة غيري، أثارته بأنوثتها ونداءات عينيها. الرجال لا أمان لهم. لا يستحقون أن تُضحّي من أجلهم بحلم عمرك. هم ضُعفاء أمام إغراءات النساء. تعالي، ثمّة ديسكو رائع قريب من هنا. أُريد الليلة أن نشرب ونرقص.

– هل نسيتِ أنّني لم أبلغ بعد الثامنة عشرة من عمري؟ ردّت عليها جاسمين.

علّقت صوفي على عبارتها باسمة:

– وهل نسيتِ أنتِ أيضاً أنّني أكبرك بعام! أنا من سيتولّى كسر القواعد منذ هذه اللحظة.

طلبت صوفي زجاجتي بيرة، وكأسين من شراب «التيكيلا». تذوّقت جاسمين طعم الكحول لأوّل مرّة في حياتها. دار رأسها سريعاً. أمضتا الليلة في الرقص، وسماع الموسيقى، واحتساء الشراب. خرجتا من «الديسكو» قرب الواحدة. كان من الصعب على أيٍّ منهما القيادة. نادت صوفي على واحدة من سيّارات الأجرة. قرّرتا تمضية الليلة في أحد فنادق ميامي. عند الصباح عادتا معاً إلى بوكاراتون. تناولتا الغداء في مطعم برغر كينغ. طلبت كلّ منهما شريحة من الهمبرغر بطبقة من الجبن والفطر، مع بطاطس مقليّة. لم تكفّ صوفي عن الكلام. أخذت تحكي لجاسمين بنبرة حماسة عن تمارين الرقص التي تُجهدها في بعض الأحيان، وعن سعادتها بعالمها الذي حلمت به منذ

صغرها. كانت جاسمين تستمع لصديقتها باهتمام. تتطلّع إليها بإعجاب، متمنّية في قرارة نفسها، أن تُصيبها عدوى تفاؤلها وإقبالها على الحياة. اتّفقتا على أن تتقابلا مُجدّداً قبل عودة صوفي إلى روما.

6

أمضت صوفي ليلة سفرها في منزل جاسمين. طلبتا فطيرة بيتزا. أخذتا تلتهمانها أمام التلفاز. أمضتا الوقت في مشاهدة أحدث أفلام الممثلة جينيفر لورنس. أشعلت صوفي سيجارة حشيش. سألتها جاسمين: – منذ متى تُدخّنين الحشيش؟

– قبل سفري إلى روما. أعطاني أوّل سيجارة صديق لي في المدرسة. كنتُ أيّامها في الخامسة عشرة من عمري. أحببتها. لماذا لا تُجرّبينها. هيّا سحبة واحدة لن تُؤذيكِ.

قرّبت جاسمين فمها، وأخذت نفساً طويلاً من السيجارة. شعرت برأسها يدور، وبدأت بالسعال. انفرطت صوفي في الضحك، قائلة: – لا عليكِ، دوماً التجربة الأولى تأتي هكذا.

أشعلت لها واحدة، وقدّمتها لها. بدأت جاسمين تُدخّنها ببطء. سحقت عقب السيجارة بأناملها بعد أن فرغت منها.

سألتها صوفي بفضول:

– ما رأيك؟ هل أحببتها؟

– لم أستسغها. عموماً، تجربة أحببتُ أن أخوضها، لكن لا نيّة عندي لتكرارها.

سألت صوفي فجأة صديقتها:

– ما أخبار ستيف؟

ابتسمت جاسمين، قائلة:

– على حاله. لم يتركني طوال الأيّام الماضية.

– شاب طيّب. أنا واثقة بأنّه يحمل لك مشاعر حبّ عميقة. ألم تُفكّري في إعطائه فرصة للتقرّب منك؟

– ستيف صديق رائع، لكنّني لا أشعر ناحيته بغير مشاعر الصداقة والأخوّة. لا أريد إفساد علاقتنا.

– هل لأنّ والدتك لم تكن تُحبّه؟

– لا، أبداً. لا دخل لوالدتي بهذا الأمر.

ساد صمت قصير. قطعت صوفي حباله، قائلة: – من يدري، قد تُصادفين شابّاً وسيماً صدفة، ويُصبح رجل حياتك. جميعنا بحاجة للحبّ، شريطة أن لا يعوق أحلامنا. حياتنا يا صديقتي، تكمن حلاوتها في الإقدام على مُغامرات غير محسوبة.

ألقت جاسمين بناظريها صوب الشرفة، وعلّقت قائلة: – أتعرفين يا صوفي ماذا كانت أمي تقول لي؟ كانت تقول إنّ البحث عن الحبّ يفقده نكهته، وإنّ متعة الحبّ في أن نصطدم به فجأة! لذا لن أقف عند النافذة وأترقّب وصوله.

ابتسمت صوفي. رمقت صديقتها بنظرة حنان، قائلة: – من يعرفك يكتشف أنّ عقلك أكبر من سنّك بكثير.

وافقت جاسمين، بعد إلحاح من صوفي، على أن تُسافر إليها، وتقضي معها أعياد الميلاد ورأس السنة في روما. أكّدت عليها أن تُحضر معها ملابس ثقيلة، فروما شديدة البرودة في الشتاء، وجوّها في هذا التوقيت ليس معتدلاً كميامي أو بوكاراتون. التهت جاسمين بدراستها. كانت قد عادت إلى مدرستها بعد انقطاعٍ دام لأكثر من أسبوع. فريق إدارة المدرسة، ومعلّماتها ومعلّموها، قدّموا التعازي لها. عرضوا عليها مساعدتها في ما فاتها من دروس. شكرت الجميع. كان ستيف يمرّ عليها في عطلة نهاية الأسبوع. يجلسان في أحد المقاهي، أو يذهبان للتنزّه في Mizner Park. كان يعمل جهده لإخراج جاسمين من دائرة أحزانها. لاحظ أنّها ازدادت نحولاً. كانت جاسمين دائمة التفكير في أمر المفكّرة. فكّرت في مصارحة ستيف. عادت وصرفت النظر. عرض عليها ستيف ترتيب نزهة لنهاية هذا الأسبوع. اعتذرت له. أخبرته بأنّها تُريد مراجعة الدروس التي فاتتها في الآونة الأخيرة.

كانت الساعة تُشير إلى السابعة مساءً. شعرت جاسمين بالظمأ. اتّجهت صوب المطبخ. فتحت باب الثلّاجة. وقع نظرها على زجاجات البيرة

المرصوصة. كانت صوفي قد تعمّدت أن تشتريها لها قبل سفرها. قالت لها وهي تودّعها: «الحياة قصيرة يا صديقتي، استمتعي بحياتك. أوقفي بندول عقلك عن التحرّك قليلاً، كي تشعري ببهجة الحياة». تردّدت جاسمين هنيهة قبل أن تمدّ يدها وتسحب واحدة منها. أخذت ترشفها ببطء. وقفت تتأمّل صورة والدتها المعلّقة بصدر الصالة. كانت الصورة مرسومة بالألوان الزيتيّة. تتذكّر جاسمين جيّداً تفاصيل هذه اللوحة. كانت في الرابعة عشرة من عمرها، في واحدة من العطل الصيفيّة التي قضتاها في مدينة باريس. أخذت يومها تجول مع والدتها في مونمارتر Montmartre، تلك المنطقة الجميلة العالية التي تطلُّ على باريس. كانت الطرقات على جانبي الأرصفة تعجُّ بالرسّامين والرسّامات. اللوحات المعروضة معظمها عبارة عن وجوه لأناس مرّوا بذلك المكان. لفتت الرسوم انتباه أمّها. وقفت تتأمّلها بإعجاب. سألت إحدى الرسّامات الواقفات بجانب لوحاتها إن كانت تستطيع رسم وجهها بالألوان الزيتيّة خلال أيّام معدودة؟! وافقت المرأة شريطة أن تقبل أمّها بالسعر الذي ستعرضه عليها. وافقت والدتها على الفور. كانت متحمّسة لرؤية «بورتريه» يعكس ملامحها. طلبت منها الرسّامة أن تصوّرها بكاميرا التصوير التي تحملها. لم تعترض أمّها. أخذت الرسّامة صوراً لها من عدّة زوايا. لاحظت أمّها عند تسلّمها لوحتها أنّ الرسّامة أبرزت ملامح عينيها. سألتها حينها عن المغزى! أجابتها بلهجة إنجليزية ركيكة: «سرّكِ في عينيكِ». ابتسمت أمّها بخباثة. تذكّرت جاسمين واقعة أخرى حدثت في ذلك المكان. في ذاك النهار، اشترت أمّها باقة من الزهور، ودعتها لمرافقتها إلى مقبرة Cimetière de Montmartre الخاصّة بالمشاهير. رغبت والدتها في زيارة قبر المغنّية داليدا. كان تمثالها مصنوعاً بحجمها الطبيعي، يقف شامخاً أمام قبرها، وقد حُفر على قطعة الرخام خلفه اسمها DALIDA. الزهور تُحيط به من الجوانب كافّة. وضعت أمّها الباقة فوق ضريحها. دمعت عيناها. كانت جاسمين ترمقها بنظرة دهشة، وعشرات الأسئلة تدور في رأسها. لم تكن جاسمين تعرف وقتها الفنّانة داليدا، ولا أيّ شيء عن تفاصيل حياتها! سألت أمّها بنبرة فضول: – من هذه المرأة؟

ربّتت أمّها كتفها قائلة:

– إنّها من أعظم فنّانات القرن العشرين. رغم الشهرة التي حظيت بها، كانت امرأة وحيدة، تعيسة في الحبّ. فقدت كلّ من أحبّتهم. أتعرفين يا بنتي

ما أقسى موقف ممكن أن تتعرّض له المرأة! عندما تفقد من تحبّ. لا أقصد ذلك الذي ينتزعه الموت من بين أحضان من تعشق، فهذا قرار إلهي ليس لها حيلة فيه! ولكن أتحدّث عن ذلك الذي يركض بعيداً، دون أن يتهيّب من ضوء الشمس. تزهد النفس بعدها في الحياة، مهما كانت المغريات كثيرة. تظلُّ الروح تسير هائمة، مُعتقدة بأنّ حبيبها قد يعود إليها على بساط ريح، أو بقدرة خارقة من أحد ملوك الجان الذين يسكنون باطن الأرض. آه يا جاسمين، غداً تكبرين، وتُدركين مغزى كلامي.

– هل تقصدين أبي بحديثكِ؟، سألتها جاسمين بعفويّة.

باغت أمّها السؤال. أرخت أهدابها، دون أن تُجيب عن سؤالها. توقّف شريط الذكريات عن الدوران. أدارت جاسمين ظهرها للوحة. صعدت إلى غرفتها. لفحتها فجأة رياح الشوق لأمّها، وساقتها قدماها إلى غرفتها. مسّدت بباطن كفّها اللحاف المفروش فوق سريرها. حضنت وسادتها. دفنت وجهها فيها. أرادت أن تستنشق ما بقي من رائحتها. تحوّلت نظراتها نحو مُفكّرة أمّها. أمسكتها بين يديها. فتحت على الصفحة المطويّة التي توقّفت عندها. انتابها فجأة إحساس غريب. شعرت بشيء يجثم على قلبها. طوت المفكّرة بقوّة. أعادتها إلى مكانها داخل الخزانة. خرجت مهرولة من الغرفة. أحسّت بحاجتها إلى استنشاق هواءٍ خالٍ من أتربة الماضي.

7

انشغلت جاسمين بامتحانات نصف العام. حصلت على علامات عالية. غمرتها الفرحة بأنّها نجحت في تحقيق جزء من حلمها.

حلّت إجازة أعياد الميلاد ورأس السنة. بدأت جاسمين تُجهّز أغراضها للسفر إلى صوفي، وهي متحمّسة لقضاء الإجازة مع صديقتها. كان عليها الاستيقاظ مبكراً لتصل إلى مطار ميامي الدولي، حيث ستُقلع طائرتها. كانت الرحلة من ميامي إلى روما تستغرق ساعات طويلة. جلست على المقعد المجاور لجاسمين سيّدة في السبعينات من عمرها. رغبت جاسمين في تبديد ملل الرحلة. سألت المرأة العجوز عن الدافع وراء سفرها إلى روما في هذا التوقيت! ابتسمت العجوز. ردّت عليها، قائلة: «زوجي من أصول إيطاليّة. التقيتُ به عندما كنتُ في الخامسة والعشرين من عمري أثناء جولة سياحيّة لي بروما. انجذبنا لبعضنا من النظرة الأولى. تزوّجنا بعد شهر من تعارفنا. جاء معي إلى ميامي. كان بارعاً في تصليح السيّارات. فتح محل ميكانيك صغيراً ونجح فيه. من يومها لم نفترق يوماً واحداً. أنجبنا ولدين رائعين، ناجحين في حياتهما المهنيّة، وأصبح لكلٍّ منهما أسرة صغيرة. غدوتُ اليوم جدّة لخمسة أطفال. اعتدنا أنا وزوجي السفر كلّ عام إلى روما، لقضاء أعياد الميلاد ورأس السنة. نحتفل في روما، التي شهدت اندلاع الشرارة الأولى لحبّنا، بذكرى زواجنا الذي يتوافق مع أعياد الميلاد. كانت حياتنا الزوجية تتخلّلها بعض المنغّصات، لكن بلا شك كنّا زوجين سعيدين. تُوفي زوجي قبل ثلاثة أعوام، لكنّني ما زلتُ حريصة على إحياء ذكرى زواجنا. أطوف على كلّ الأماكن التي كنّا نذهب إليها معاً. أشعر بأنّه يُلازمني، ولا يُفارقني، وهذا يبعث بداخلي الطمأنينة. الوفاء صفة جميلة يا عزيزتي. من يدري! قد لا يسعفني العمر

لتكرار هذه الزيارة في العام المقبل، وتكون زيارتي الأخيرة لروما. أتعرفين؟ لقد سئمتُ العيش بمفردي، وأشعر بأنّ الوقت حان لألحق به».

سرحت جاسمين في كلامها. تذكّرت أُمّها، وكيف كانت تتحدّث بطريقة مُشابهة عن أبيها. وصلت الطائرة إلى مطار ليوناردو دافينشي الدولي عند الساعة التاسعة صبيحة اليوم التالي بتوقيت روما. ودّعت جاسمين السيدة، متمنّية لها عيد ميلاد مجيداً، وسنة مُقبلة سعيدة. كانت صوفي بانتظارها في المطار، بسيّارتها الفيات الصغيرة ذات اللون الأبيض. قالت لها صوفي وهي تحضنها: «سعيدة بوجودك. أعدك بأنّنا سنقضي وقتاً جميلاً معاً». وصلتا إلى شقة والديْ صوفي. قالت لها: «الشقة رحبة، وأهلي فضّلوا قضاء الأعياد في ميامي. رتّبتُ لك الغرفة التي بجواري». كان البيت يقع في منطقة «فيافينيتو» الشهيرة. أخبرتها جاسمين بأنّها متحمّسة لرؤية المدرّج الروماني. كانت جاسمين قد جاءت إلى روما مع والدتها في زيارة خاطفة قبل سنوات قليلة. انتظرت طائرتهما في مطار روما ساعتين، قبل أن تُقلع بهما إلى فينيسيا. وعدتها والدتها بأن تزورا روما عند بلوغ جاسمين الثامنة عشرة من عمرها، الذي يُوافق الثلاثين من شهر ديسمبر. القدر لم يمهلها لتحقيق مُرادها. تعالت قهقهة ضحكات جاسمين وهي تصعد درجات المدرّج. كانت تشعر بالبهجة والسعادة. خلفها كانت صوفي تسعى للّحاق بها. توقفت جاسمين عند بلوغها منتصف المدرّج. جلست على إليتيها تُراقب بحبّ صديقتها صوفي وهي تتّجه ناحيتها. جلست بجانبها. أخذتا تُراقبان أفواج السيّاح المنتشرين أعلى المدرّج وأسفله. كان الطقس شديد البرودة. شبكت جاسمين أصابع يديها المغطّاة بقفّازين مصنوعين من خيوط الصوف المتداخل الألوان. كانت ترتعش من صقيع الهواء، رغم الجاكيت الثقيلة التي كانت ترتديها. ابتسمت صوفي، قائلة: «هناك في الأسفل بالقرب من المدرّج، مطعم يشتهر بصنع البيتزا. ستأكلين بيتزا لها طعم مُختلف ومميّز»...

طلبت صوفي من أحد السيّاح التقاط صور لهما بكاميرتها. التقط لهما صوراً عدّة بخلفيات مختلفة. هبطتا ببطء درجات المدرّج. طلبت صوفي بيتزا كبيرة الحجم بلحم الخنزير، أضافت إليها المزيد من جبنة الموزاريلا مع الزيتون الأسود. كذلك، طلبت صوفي من النادل قنّينة من النبيذ الأبيض. شعرت جاسمين بالدفء بعدما أنهت هي وصوفي القنّينة، والتهمتا آخر قطعة من

البيتزا. أثنت جاسمين على طعم البيتزا. أكّدت لصوفي أنّها بالفعل لم تتذوّق من قبل بيتزا بهذه الحلاوة، ولا حتّى في مدينة فينيسيا. في المساء أخذتها صوفي إلى ديسكو يقع بالقرب من شقّة والديها. سهرتا حتّى الثالثة صباحاً. شربتا كؤوساً عدّة من شراب «التيكيلا» مع بعض من قوارير البيرة. عادتا منهكتين. رمت كلّ منهما بجسدها على السرير وراحتا في النوم. استيقظت جاسمين عند الثانية عشرة. أيقظت صوفي. صنعت كلّ منهما لنفسها فنجاناً من القهوة الممزوجة بقليل من الحليب. جلستا في الشرفة، تحتسيان قهوتهما وتُراقبان حركة الشارع المزدحم بالمارّة. سرحت جاسمين في زينة أعياد الميلاد التي ازدانت بها الأشجار الواقفة على جانبي الرصيف. كان الرصيف مُكتظّاً بالناس. لاحقت بنظراتها شابّاً وفتاة يتعانقان تحت جذع إحدى الأشجار. امرأة تُمسك بيد طفلها الصغير وهو يبكي مُشيراً بيده إلى عربة الآيس كريم، لتشتري له قالباً. امرأة عجوز تمشي بصعوبة، متكّئة على عكّازها. أخرى في منتصف العمر، تُحيط ذراعها بخصر شابّة مُقاربة لعمر جاسمين، تتبادلان بحماسة أطراف الحديث. أحسّت جاسمين فجأة بوخزة ألم. لاحظت صوفي تلك المسحة الحزينة التي طفت على وجه صديقتها. سألتها عن سرِّ تبدّلها المفاجئ! أجابتها جاسمين بنبرة متأسّية:

– هذا أوّل عيد ميلاد لي، وعيد رأس سنة، أقضيه وأمّي ليست معي.

رمت صوفي بصرها بعيداً. رأت أن تُبدّد هذه اللحظة الكئيبة، قالت:

– على روح والدتك السلام. سآخذكِ إلى نافورة الأماني بما أنّ الليلة عيد ميلادك. أريدكِ أن تلقي قطعة نقود معدنيّة فيها، وتتمنّي أيّ أمنية تُريدين تحقيقها.

– هل حقيقة تُصدّقين هذه الأسطورة؟ علّقت جاسمين على كلامها.

ابتسمت صوفي قائلة:

– عزيزتي، حياتنا كلّها مجموعة من الأساطير، تصنعها خيالاتنا. ماذا سيجري لو لم يتحقق بعض منها! سنعاود الكرّة مرّات ومرّات، في مكان آخر، وفي مرحلة أخرى. التشبّث بالمحاولات جزء من طبيعتنا البشريّة. نحن ما زلنا في أوج شبابنا، والحياة فاتحة ذراعيها لنا لنفعل ما نُريد. اطردي الهمّ عنكِ يا صديقتي.

قامت من مكانها. طبعت قبلة على خدّ جاسمين قائلة:

– هيّا بنا. أمامنا الكثير لنفعله.

كان المكان كالعادة يغصُّ بالسيّاح القادمين من كلّ حدب وصوب. كانت هناك فرق شبابيّة متفرّقة، تعزف أناشيد أعياد الميلاد. ندف الثلج أخذت تتساقط ببطء. أمسكت جاسمين بالقطعة المعدنية. أغمضت عينيها. وجدت نفسها حائرة أيّ أمنية ستختار! هل تتمنّى أن تعرف سرّ المفكّرة التي تركتها والدتها خلفها؟ هل تتمنّى أن يُمزّق القدر أستار الأمس، ويعرض أمامها ما وقع مع أمّها بالصوت والصورة؟ أفاقت من حيرتها على يد صوفي تهزّها قائلة: «هيّا يا عزيزتي، تمنّي بسرعة، وإلّا فستجدين كلّ أمنياتك غارقة أسفل البحيرة. حتّى الأمنيات يا عزيزتي سريعة التململ».

رمت جاسمين القطعة المعدنية دون أن تهمس بأمنية في سرّها. ارتأت أن تترك المهمّة للقدر.

مرّت الإجازة بسرعة. شكرت جاسمين صديقتها على الأيّام التي قضتها معها. قالت لها صوفي بعينين دامعتين:

– سأفتقدك.

بدا التأثّر واضحاً على كلتيهما.

ضمّتها جاسمين إلى حضنها، قائلة:

– عديني أن تزوريني في نيويورك.

– هذا أمر مفروغ منه يا عزيزتي. لن أدعَ ظروف الحياة تُفرّقنا. ردّت عليها صوفي.

أقفلت جاسمين عائدة إلى بوكاراتون. ظلّت تُراسل صوفي عبر الفايسبوك. تتبادلان أخبارهما. أخبرتها صوفي بأنّها ستُشارك في حفلة باليه كبيرة قريباً. سألتها جاسمين عن صديقها الإسباني! أخبرتها بأنّها قطعت علاقتها به. كان قد عاد من إجازته، بعد أن قضى أعياد الميلاد ورأس السنة مع أهله في مدريد. صار دائم التململ. يُفصح لها عن ضجره من تدريبات الرقص المتواصلة التي تستمرّ أحياناً كثيرة لساعات طويلة. يتّهمها بعدم اكتراثها لرؤيته. طلب منها تأجيل حلمها من أجله. كان يطمح بأن تأتي معه إلى إسبانيا وتحيا في عالمه، رافضاً أن يحيا في عالمها. اختارت بلا تردّد ما يُشبع ذاتها، ويُحقّق أمنيتها. قالت لجاسمين: «لقد قرّرتُ بعد طول تفكير، الانحياز لمستقبلي. الحبّ الذي لا يحترم أحلامي، أرفضه! إذا قبلتُ اليوم وتنازلت،

وضحّيتُ بكلّ شيء من أجله، فسأنقم عليه غداً وسألومه في سرّي، وسأتسبّب عندها بإتعاس نفسي وإتعاسه. كان قرار الابتعاد أفضل القرارات التي اتّخذتها في حياتي». وافقتها جاسمين على رأيها.

كانت جاسمين تقبل أحياناً دعوات سوزان وإميليا بعد إلحاحهما عليها، للحضور إلى الغداء أو العشاء في بيتيهما في عطلة نهاية الأسبوع. أحياناً أخرى كانتا تدعوانها إلى تمضية عطلة السبت في Mizner Park. تسألانها عن أخبارها الجديدة. تؤكّد لهما أنّ الأمور تسير كما تُريد. كانت جاسمين قد فاتحت سوزان برغبتها في بيع متجر والدتها، عارضة عليها شراء . رحّبت سوزان بالفكرة لإدراكها أنّ جاسمين ستكون مشغولة بدراستها الجامعيّة، ولن تُولي اهتماماً كافياً بمتجر والدتها. فرحت جاسمين بموافقتها. أخبرتها بأنّها ستجد كافة التفاصيل عند السيد وليم توماس، وأنّه سينهي الإجراءات المطلوبة لنقل ملكية المتجر لها. كان ستيف يمرّ بين آونة وأخرى على جاسمين، يمضيان وقتهما في منتجع «إيه والدورف أستوريا»، لتُمارس جاسمين هوايتها المفضّلة في التزلّج المائي.

كانت قد بقيت أسابيع على امتحانات نهاية العام. فصل الشتاء أخذ في الانحسار. بدأت جاسمين تستعيد توازنها. ظلّت على عادتها، في ميلها إلى الانفراد بنفسها، وقضاء بعض الوقت في مقهى «ستاربكس» القريب من بيتها.

ألحَّ الفضول على جاسمين من جديد. دخلت غرفة والدتها. فتحت خزانة الملابس. كانت المفكّرة على وضعيّة يدها. سحبتها من مكانها. أراحت جسدها على سرير والدتها. بدأت تلتهم السطور بعينيها.

8

استيقظتُ قُرب العاشرة. قمتُ متكدّرة من نومي. كنتُ قد حلمتُ الليلة السابقة حُلماً غريباً. رأيت طارق يمشي على قدميه فوق رصيف الكورنيش في جدّة. يده متشابكة بيد شابّة صغيرة. كانت ترتدي عباءة سوداء، وتضع على رأسها وشاحاً أسود. حاولتُ اللحاق بهما، لم أنجح. كانت الأمواج عالية. هديرها يخترق طبلتي أذنيَّ. السماء بدأت تُمطر. الشمس توارت خلف السحب القاتمة. تعثّرت فجأة قدماي، وسقطتُ على الأرض. تبلّل شعري وثوبي. أجلتُ بصري في أرجاء المكان. اختفيا من أمامي، ولم يعد لهما أيّ أثر. لم أستطع رؤية وجه المرأة، لكنّ الغريب في الأمر أن طريقة مشيتها، وتقاسيم جسدها من الخلف، كانت تشبه يسرا إلى حدٍّ كبير.

لم أشعر برغبة في الذهاب إلى المعهد. قرّرتُ تبديد كدري الذي صاحبني ذلك الصباح. كانت الشمس مُشرقة. تركتُ سيّارتي في مكانها. آثرتُ ركوب القطار. تسكّعت في وسط المدينة. رغبتُ في إهدار الوقت الباقي، لحين موعد خروج فتحيّة من الحضانة. كانت الساعة تُشير إلى الواحدة ظهراً حين دلفت إلى داخل البيت. تركتُ فتحية تلعب في غرفتها والتهيتُ بتحضير وجبة الغداء. سمعتُ فجأة جلبة في الصالة. كانت فتحية تلعب بحاجيات والدها. نهرتها. أخذت تبكي. أجلستها في حجري. غفت على صدري. وضعتها في سريرها. رجعتُ إلى الصالة. أخذتُ أعيد حاجيات طارق إلى مكانها. لا أعرف لماذا دهمني فجأة خاطر لم أعرف له سبباً. فتحتُ الدرج العلوي لمكتبه. كان طارق منظّماً. كلّ أشيائه في مكانها. لفتت انتباهي محفظته القديمة التي تعود إلى أيّام خطبتنا. سألتُ نفسي... لمَ بعد كلّ هذه السنوات يحتفظ طارق بهذه المحفظة المتهالكة! فتحتها. كانت فارغة. لمحت في أحد جيوبها طرفاً لصورة

فوتوغرافيّة. سحبتها برفق. أطلقتُ شهقة كبيرة. وضعتُ باطن كفّي على فمي من الدهشة. كانت صورة قديمة لأختي يسرا مع طارق، مكتوب على ظهرها بخطّ أختي الذي ما زلتُ أحفظه «إلى حبّي الأول والأخير». مدوّن تحت العبارة، التاريخ الذي كُتبت فيه. كانت الصورة مأخوذة من ليلة خطبتهما. تظهر فيها يسرا بفستانها الأخضر ويدها مُتشابكة بيد طارق. ينظر كلّ منهما إلى الآخر بشوق ولهفة، والسعادة تغمر وجهيهما. تُرى لماذا ظلَّ محتفظاً بهذه الصورة كلّ هذه السنوات؟ لا أُريد أن أظلمه! ربّما نسي وجود هذه الصورة أصلاً! لو لم يكن يُحبّني لما اختارني لأصبح زوجته وأمّ ابنته. نيران الشك تأجّجت لحظتها في أعماقي. أعدتُ المحفظة إلى مكانها. فتحت الأدراج الأخرى لمكتبه. لمحتُ مُفكّرة جلدية، بنيّة اللون، موضوعة في الدرج السفلي. قلّبتُ صفحاتها. كلّ السطور مدوّنة بخطّ طارق. كانت عبارة عن يوميات. صفحات مملّة لا جديد فيها. كانت تتضمّن توثيقاً بالتواريخ للتفاصيل اليوميّة التي عشناها في بوسطن من بداية وصولنا. وصف دقيق لمشاعره عند ولادة فتحية. أحاسيس الأبوّة التي دهمته لحظة خروج ابنته إلى الدنيا. ضحكت على بعض السطور التي تحكي عن مواقف طريفة تعرّضنا لها في بوسطن، وعن ردود فعلنا العفويّة، جرّاء اصطدامنا بعادات لم نألفها في بلدنا. أعدتُ المفكّرة إلى مكانها. لمحتُ في تلك اللحظة دفتراً صغيراً بغلاف أسود جلدي، محشوراً في آخر الدرج. انقبض قلبي فجأة. مددتُ يدي وسحبته. قلّبت الصفحات بسرعة. كانت جميعها مكتوبة بخطّ طارق. عُدتُ إلى الصفحة الأولى. كانت مُدوّنة فيها هذه العبارة «عندما نموت، لا نترك أماكننا فارغة! هناك أثر يدفع الناس إلى التغنّي به، وخلق روايات ممتعة حوله لآخر الزمان! وهناك من يترك ضغائن تكفي لإحراق مدن بأكملها. وهناك من يُخلّف بحوراً من دموع القهر والحسرة، تكفي لإغراق غابات شاسعة!».

قلبتُ بيد مرتعشة على الصفحة الثانية. لاحقتُ بعينيَّ السطور المكتوبة:

«قصّت عليَّ أمّي، أنّ شجاراً كبيراً وقع بينها وبين أبي عند إنجابها لي. كان أبي مصرّاً على تسميتي فاروق، على اسم جدّي، تخليداً لذكراه لكوني الابن البكر. أمّي هي الأخرى كانت لها أسبابها، في تمسّكها بتسميتي طارق، على اسم أخيها. كان خالي قد تُوفي صغيراً، بعمر الخامسة عشرة، إثر حادث سيّارة مروّع أودى بحياته. حكت لي أمّي كيف غافل جدّي أثناء نومه، وأخذ

مفاتيح سيّارته من جانبه. كان يُريد أن يُجرّب قيادة السيّارة. عند أوّل منعطف، اصطدمت سيّارة «جيمس» مسرعة بسيّارة جدّي، مما أدّى إلى وفاة خالي طارق على الفور. كانت أمّي متعلّقة بخالي الذي كان يكبرها بعام واحد فقط. تُردّد أنّه كان أقرب إخوانها إلى قلبها. حرصت على وضع صورة متوسّطة الحجم له، مُحاطة ببرواز من الخشب البنّي اللون، على حائط غرفة الجلوس في بيتنا. لم يستمرّ أبي في عناده. تنازل عن مطلبه كي لا يُغضب أمّي، واحتراماً لذكرى خالي الذي لم يلتقِ به قطّ. عندما أنجبت أمّي أخي الذي يصغرني بثلاثة أعوام، أطلق عليه أبي على الفور اسم جدّي. رغم فارق العمر البسيط الذي بيني وبين أخي، كنّا في صغرنا، دائمَي الشجار. يتّهمني بأنّ الجميع يفضّلونني عليه لكوني الابن الأكبر. مع مرور السنوات تقلّصت مساحة خلافاتنا. أصبح أخي فاروق صديقي المقرّب، الذي لا أخفي عنه شيئاً. كان أوّل شخص أحكي له عن قصّة حبّي. كان أحياناً يستفزني. يقول لي مازحاً: «ذوقك رفيع يا خويا. والله عرفت تختار».

لم أكن أدري أنّ اسمي الذي أطلقته عليَّ أمّي سيُصبح له مغزى عندما أكبر. طرقتُ باب قلبين بسهولة ويسر، كالماء الذي ينساب بخفّة في مجرى الحقول، ليروي نباتاته. اخترقتُ قلب يسرا، الفتاة الصغرى، بسلاسة وبتعمّد منّي. رغبتُ فيها بشدّة، تعلّق قلبي بها منذ اللحظة الأولى التي وقعت فيها عيناي عليها. الفتاة الكبرى، حياة، اقتحمت باب قلبي بدون أن أغمز لها بطرف عيني! كالغريب الذي يطرق باباً، ويتطفّل عمداً على حياة صاحبه، ويجول في أرجاء البيت، دون أن يبالي بأنّ لساكن المنزل حبيباً، بصماته محفورة في كلّ ركن فيه.

يسرا هي من تربّعت على عرش فؤادي، وملكت الوجدان. لم تكن عيناي تريان سواها. من قال بأنّ القلوب تُخطّط لمقدّراتها كاذب وأفّاق. دقّات القلب تعزف بعفويّة على أوتار من تخفق وتنجذب الروح إليها، وهذا ما جرى بيني وبين يسرا. جمالها أسرني، لكنّ حلاوة روحها في ما بعد هي ما دفعني للتعلّق بها. شرّعت لي أبواب قلبها. قالت لي: «قلبي يرفض صدّ الأبواب في وجهك. إحساسي يقول لي بأنّك ستكون حبيب العمر». أقسمتُ لها أنّها ستكون رفيقة الدرب لآخر يوم بحياتي. كانت لنا لقاءاتنا الخاطفة. كانت تلك الأيّام أجمل أيّام حياتي. لم يخطر ببالي ولو للحظة، أنّ الأقدار كانت تُخطّط لي ولها منحى آخر!

أحياناً كثيرة نكون سُذّجاً حين نظنّ أنّنا أقوى من القدرة الإلهيّة. نجهل أنّ الله له دوماً حسابات أخرى غير تلك التي نرسمها لأنفسنا. أحياناً تحضرني ذكراها. أعاتب الله في سرّي... لمَ حرمني من الفتاة التي هام بها قلبي حبّاً! أدركت من لحظتها أنّ ذكرياتنا إن كانت جميلة تُنهكنا. تجعلنا نئنُّ بسببها، من شدّة الحنين إليها. وإن كانت قاسية، أدمى قلوبنا الحزن والكمد من بشاعة صورها. عندما يموت من نحبّهم، لا نذرف الدمع حزناً عليهم فقط، بل لأنّنا نفتقد بشدّة عبق أنفاسهم، ثمّ نكتشف أنّهم لن يُشاطرونا بعد اليوم هواء الأرض، وأنّ الواقع يُحتّم علينا تقبّل فكرة رحيلهم إلى الأبد.

لم يكن لي تجارب مع فتيات طوال مرحلة مراهقتي. كنتُ ألاحظ فتيات عائلتنا يملن للتحدّث معي. كلّ واحدة منهنَّ تُمنّي نفسها بأن أكون من نصيبها. لم تنجذب روحي لأيّ واحدة منهنَّ. كنتُ متفوّقاً في دراستي. وقتي موزّع بين الالتقاء بأقراني المقاربين لي في العمر، والالتفات لدروسي. أوّل مرّة لمحتُ يسرا، خطفت قلبي رغم صغر سنّها. صرتُ أفكّر فيها نهاراً وليلاً. فعلتُ المستحيل لأجذب انتباهها. كانت بالغة الحياء. كنتُ أراقبها من سطح بيتنا. شعرتُ من نظراتها أنّها هي الأخرى تُبادلني الإعجاب. لم يطل انتظاري طويلاً. نجحتُ في الوصول إليها، من خلال حصولي على رقم هاتف منزل أهلها. كانت مُجازفة منّي. المرّة الأولى التي اتّصلتُ فيها، كانت يداي ترتعشان وأنا أدير قرص الهاتف. كنتُ محظوظاً. لم يكن في البيت سواها ذلك اليوم. أحسستُ من نبرة الصوت الذي ردَّ عليَّ أنّها يسرا. سألتها لحظتها بقلب واجف... هل أنتِ يسرا؟ أجابتني نعم بنعومة فائقة. عرّفتها بنفسي، وبحت لها بأنّني مُعجب بها. بعدها تكرّرت الاتّصالات في مواعيد كنّا نتّفق عليها. كنّا نتحادث كثيراً في الليل. عندما صارحتُ أمّي برغبتي في التقدّم لها، ابتسمت معلّقة: «ظننتُ أنّك تُريد حياة، ابنتهما الكبرى! عموماً لا بأس، كلتاهما من بيت طيّب». حين ماتت يسرا، توقّفت عقارب الزمن عندها. رضيت بنصيبي في الدنيا. قلتُ أيّامها لأمّي لن تكون هناك أخرى في حياتي. بكت، قائلة لي: «لا تحرمني من رؤية ذرّيتك. سأدعو الله في صلاتي أن يرزقك زوجة صالحة. الحياة يا بنيّ لا تتوقّف، وجميعنا سنموت. أنتَ ولدي البكر، وأبناؤك امتداد لاسم أبيك في الدنيا. لا تُخيّب أمله فيك». تشبّثتُ بموقفي. لم تيأس أمّي، ظلّت تعرض عليَّ صوراً لفتيات من داخل العائلة وخارجها، وكانت إجابتي الرفض بإصرار. اقتحمت

حياة حياتي فجأة. لم ألاحظ أنّها كانت تقف سنوات خلف باب حياتي، تتنصّت على أوجاعي، منتهزةً الفرصة للولوج من أيّ فتحة صغيرة. حكيتُ لأخي عن محاولات حياة. سألته عن رأيه. طلبت مشورته. كنتُ حائراً! قال لي باسماً: «ما سرّكَ يا أخي؟ كلّ البنات يرغبن في أن يحظينَ بقلبك! هل قدركَ أن ترحل الفتاة التي أحببتها، لتستبدلها بهذه السرعة بأخرى من دمها؟ هل قلبكَ مؤهّل لاستقبال حبّ جديد؟ أنا أصغر منكَ سنّاً يا طارق، لكن كن حذراً. المرأة لا تنسى، ولا تغفر بسهولة، خاصّة إن كان الأمر يتعلّق بذكرى امرأة غيرها، وإن كانت أختها».

كان أخي، على العكس منّي، سريع الغضب، مندفعاً، جريئاً. في صغره، كان دائم الشجار في المدرسة مع أقرانه. كان أبي يؤنّبه سائلاً: «لمَ لا تتعلمّ من أخيك المسالمة؟» لكنّ أخي كان يتباهى بأفعاله حين نكون بمفردنا. يقول لي إنّ الشجار مع من يفوقونه سنّاً يُشعره بأنّه الأقوى. يجعل الجميع يهابونه. بدأ بمعاكسة الفتيات في الأسواق، منذ ولج سنّ الخامسة عشرة. كان يقول لي مازحاً: «صعب أن يقع أخوكَ في الحبّ. عندما أفكّر في الزواج سيكون زواجي بالعقل لا بالقلب. قدوتي أبونا وأمّنا. هما لم يتزوّجا عن حبّ ولا عن سابق معرفة، لكنّ علاقتهما وثيقة، وهما مرتبطان بقوّة كلٌّ بالآخر. أؤمن يا أخي بالمقولة الرائجة بأنّ الزواج مقبرة الحبّ، وأنّ العشرة الطويلة تُخمد لهيب الحبّ مهما كان مُستعراً، لذا لن أكون مثلك وأستسلم لاغراءات العشق، وأجعلها تتحكّم بمفاتيح حياتي».

تزوّج فاروق بعد أربع سنوات من زواجي. اختار عروسته من بيت طيّب. كان زواجه كما خطّط له. لم أكن مُقتنعاً بنظرته في الزواج بدون حبّ، وأرى أنّه كان محظوظاً فقط، لأنّ نصيبه أوقعه في فتاة عاقلة، تفهّمت طبيعة شخصيّته، ولديها القدرة على احتواء عصبيته.

لا أدري إن كنتُ أيّامها أخطأت حين ضربت بنصيحة أخي عرض الحائط، وشرّعتُ لحياة النوافذ! كنتُ أضعف من أن أقاوم حبّها الملتهب، الذي كان يئنّ سنوات من الحرمان. اعترفت لي بمشاعرها. حكت لي قصّتها معي من نقطة البداية. احترمتُ حبّها الصامت لي. قدّرتُ فيها أنّها لم تقفز على حقوق أختها إبّان حياتها. أنّها راعت رباط الأخوّة. أعترف بأنّ حبّي لحياة، كان مُختلفاً عن حبّي ليسرا. لم يكن حبّها يُمثّل لي حياة أو موتاً! كان حبّي لحياة نابعاً من

الاحتياج إلى رفيقة تُحبّني بصدق، أكمل معها مسيرة عمري. كان كحبّ الغريق الذي وجد طوق نجاة، يُساعده على الوصول إلى شاطئ الأمان. أمّا حبّي ليسرا، فقد كان حبّاً صاخباً، يحمل في طيّاته عواصف ورياحاً، جعلت قلبي طوال الوقت يترنّح عشقاً بها.

عاهدتُ نفسي أن أجعل حياة سعيدة معي. كنتُ أقدّر لها وقفتها معي. كنتُ أتحاشى ذكر اسم يسرا أمامها مراعاة لمشاعرها. وضعتُ نصب عينيَّ نصيحة أخي، بأنّ غيرة النساء لا حدود لها. عندما جاءت ابنتي فتحية إلى الدنيا، زادت معزّة حياة في قلبي، لأنّها قدّمت لي أعظم هديّة. حبّي لابنتي كان مُختلفاً عن حبّي للأختين. عرفتُ من خلال فتحية، لأول مرّة، مشاعر الأبوّة التي أضفت البهجة والسرور على أيّامي. أحياناً تُساورني مخاوف من أن أفقد فتحية كما فقدتُ يسرا. أعود فأتيقّن بأنّ الله لن يكون قاسياً إلى هذا الحدّ معي، ويحرمني أعزّ ما أملك مرّتين».

بلعتُ ريقي. أخذت الدموع تنهمر من عينيَّ بغزارة. مسحتها بظاهر كفّي. أكملتُ قراءة الصفحات التالية. كان من الواضح أنّ السطور اللاحقة دوّنها في ذكرى وفاة يسرا، التي حلّت الأسبوع الماضي:

«حبيبتي يسرا... اليوم مرّت خمس سنوات على فراقك. ذاكرتي لم تنسَ ذلك اليوم الحزين. كنتُ أعرّج بسيّارتي باتّجاه البيت، حين رأيتُ أباكِ وعمّك وعدداً من أفراد عائلتك يقفون عند باب منزلكم. كان أبوكِ يبكي ويمسح دموعه بشماغه. أخوك ياسين يقف بجانبه صامتاً، قابضاً بيده الصغيرة على يد أبيك. أوقفتُ السيّارة على عجل. هرعتُ ناحية والدك. قال لي بنبرة متأسّية: «يسرا ماتت يا طارق. ستكون عروستك في الجنّة بإذن الله». أحسستُ بقدميَّ غير قادرتين على حملي. لم أتقبّل وقتها فكرة موتك. حاولت الدخول لأودّعكِ. منعوني، قائلين إنّ للميت حرمته، وإنّ شرع الله يُحرّم عليَّ رؤيتك، وإنّه يحقُّ لي زيارتك عند قبرك، بعد ذهابك إلى مثواكِ الأخير. كنتُ في حالة ذهول. لقد كنتِ بالأمسِ معي. لم يساورني أدنى شك في أنّني لن أراكِ ثانية، وأنّ لقاء الأمس، كان الوداع الأخير. كيف طاوعكِ قلبكِ على تركي بهذه السهولة؟ كيف لم تُقاومي جحافل الموت من أجلي؟ كيف للموت أن يكون قاسياً، ويسرق زهرة يانعة مثلك؟! لماذا الموت اختارك أنتِ بالذات؟ ألكي يُحطّم فؤادي؟ ألم يُلاحظ أنّكِ ما زلتِ في ريعان صباكِ؟ لقد كنتُ أحلم باليوم

الذي يضمّنا فيه سقف واحد. كانت أمنيتي أن يكون لي أطفال منكِ. كنّا قد اتّفقنا على أن نُنجب أربعة أطفال، بنتين وولدين. كنتُ أقول لك ضاحكاً: «أُريدهم أن يكونوا جميعهم شبهكِ»، وكنتِ تردّين عليَّ بنبرة حازمة: «لا، أتمنّى أن يُجيئوا شبهكَ أنت». لقد هدَّ القدر قواي حين أخذك منّي، وسلبني حبّ عمري. أعلم بأنّ الحياة لا بدّ أن تستمرّ، وأُدرك أنّ الموت علينا حقّ، ولكن ألم يستطع أن يتمهّل قليلاً إلى أن تنعمي بحياتك؟ تُرى، هل تتألّمين في قبرك لأنّي تزوّجتُ أختك؟ هل أذنبتُ بحقكِ حين سمحتُ لها بأن تأخذ مكانك؟ لقد انتابتني أيّامها مشاعر متداخلة من تأنيب الضمير، ومن جلد لذاتي. لقد أحسستُ حين ارتبطتُ بها، أنّني خنتُ العهد الذي قطعناه معاً، بأن يكون كلٌّ منّا للآخر. عدتُ وبرّرتُ لنفسي أنّك في قبرك ستكون روحك مستكينة، لأنّ الدم الذي يجري في عروق أختك، هو نفس الدم الذي كان يجري في عروقك. أتعرفين ما يُطيّب خاطري، ويُريح نفسي؟ أنّني سألقاكِ حين يحين ميعادي. سأختار أن تكوني إلى جواري، إن كتب الله لي أن أصبح في الجنّة. وإن فاتني إسعادك في الدنيا، فأملي أن تكتمل فرحتنا بالتقائنا معاً في الآخرة. أتدرين؟ في أوّل إجازة لنا إلى جدّة، انتهزتُ فرصة خروج حياة مع والدتك ودخلتُ إلى غرفتك. كان هناك نداء يشدّني لأشمَّ رائحتك. ألفيتُ أمّك قد تركت كلّ أشيائك على حالها، كأنّها كانت تتصبّر بها على فراقك. انفرطتُ لحظتها في البكاء. سرحتُ بفكري في كلّ لحظة قضيناها معاً. أخذت ألثم بشفتيَّ سريرك، وسادتك، ستائرك. كنتُ يومياً طوال فترة مكوثنا في جدّة، أذهب إلى مقبرة أمّنا حواء. أقرأ الفاتحة عند قبرك، وأتصدّق على روحك الطاهرة. كانت حياة تسألني... أين تذهب كلّ صباح؟ كنتُ أخفي عنها ما أقوم به، قائلاً إنّني أزور أصحابي. لم أتعمّد الكذب عليها، ولكن كنتُ أحترم مشاعرها، ولا أريد أن أجرح كبرياءها. تُفاجئني أحياناً خواطر لم أُخطّط لها. أتخيّل هيئتك أمامي، وأنا أضمُّ أختكِ في لحظاتنا الحميميّة، دون قصد منّي. وأحياناً أخرى يتسرّب إلى سمعي صوتكِ العذب، وأختك مستغرقة في الحديث معي. أخجل لحظتها من نفسي، وأخفض رأسي هرباً من انفعالاتي الخارجة عن إرادتي. أعرف أنّ أختك تُحبّني من كلّ قلبها، ولكنّ حبّي لك ليس ذنباً أستغفر الله منه. أؤمن بأنّ قلوب البشر خُلقت حرّة، تُحرّك مؤشّرها في أيّ اتّجاه تُريد، ولمن تخفق نبضاتها لها. أفئدة خلقها

الله شجاعة، أبيّة، لا تهمّها الإشارات الحمراء، ولا حتّى لوائح التحذير من احتمال وجود خطر يُحدق بها!».

أقفلتُ يوميّات طارق. أرجعتها إلى مكانها. تصارعت ضربات قلبي. شعرت باختناق في أنفاسي. هل كنتُ أعيش أكذوبة كبيرة؟ هل خدعني طارق حين قال لي إنّه يُحبّني؟ هل تزوّجني فقط لأنّ جلدي تنبعث منه رائحة مُشابهة لرائحة أختي؟ هل لأنَّ شراييننا يجري فيها نفس الدم؟ كيف يمكن للقلب أن يجمع حبيبتين في آن واحد؟ لقد منحته الكثير. أعطيته حبّاً لا يعرف حدوداً. تفانيتُ في إسعاده. من أين جاء بهذا الكمّ من الجحود؟ كيف طاوعه قلبه على جرحي؟ كيف استهان كلّ هذا القدر بمشاعري؟ لماذا يبقى الرجل أو المرأة أسير حبّ، كتب الله له الفناء؟ أخذتُ أتساءل في قرارة نفسي. أيقنتُ لحظتها أنّني فشلت في جرّ طارق إلى عالمي. أنّني عجزتُ عن السطو على فؤاده. لقد فازت أختي بالسيطرة على كلّ جوارحه، رغم رحيلها المبكر. ظلّت روحها تُرافقه حتّى بعد أن وارى التراب جسدها. غريبة الحياة! تعلّمنا أنّ الزمن أعظم آلة للنسيان، وأنّ الله أنعم به علينا به كي لا نتعذّب لفراق من أحببناهم، ثمّ نُفاجأ بأنّ لديها استثناءات، وأنّ أختي كانت واحداً من استثناءاته! لماذا ضنَّ الله على زوجي بهذه النعمة؟ هل هو عقاب سماوي، لأنّني تمنّيتُ في الماضي موت أختي لأحتلَّ مكانها؟ دهمني لحظتها شعور غريب لم أفهم ماهيّته، كأنّ جنّياً تلبّسني من رأسي إلى أخمص قدميَّ، وجمّدني في مكاني! أحسستُ بأنّني أتعس وأشقى امرأة في هذا الكون الفسيح!

في تلك اللحظة تمنّيتُ موت طارق. أن أسمع خبر مقتله بحادث سيّارة، أو بسكتة قلبية. ما فائدة أن يبقى حبيبي على قيد الحياة، وروحه معلّقة بامرأة مدفونة تحت التراب؟

أخذتُ أمسح دموعي التي ظلّت تنهمر دون توقّف. أعدتُ الدفتر إلى مكانه. شعرتُ في تلك اللحظة بأنّ حبّ طارق تبخّر فجأة من أعماقي، ولم يعد له ذرّة في قلبي. تبدّلت مشاعري، كأنّني لم أكن تلك المرأة التي ظلّت تتباهى طوال الوقت بأنّ الله وهبها الكثير من العطايا. تُرى، هل أكرمني الله حقّاً حين تعمّد تعرية مشاعر زوجي أمامي؟ هل بالفعل أنا امرأة محظوظة، حين قشع أمامي حقائق كنتُ أجهلها؟ لا أعرف! ربّما عدم معرفتنا لبعض الأمور القاسية، تجعلنا نعيش في استكانة وراحة بال! دلفتُ إلى المطبخ.

التهيثُ بإكمال تحضير وجبة الغداء قبل وصول طارق. كانت رائحة الغضب التي تفوح من دواخلي، تطغى على رائحة الطعام المطهوّ. دلقتُ كأساً بارداً من الماء في جوفي، عسى أن يُطفئ السعير المشتعل بأعماقي.

9

ليالي جافاني فيها النوم. كنتُ حائرة. لا أعرف ماذا أفعل! هل أصارحه بما قرأت في أوراقه؟ هل أُخيّره بيني وبين أختي؟ بالتأكيد سيسخر منّي. سيقول لي متى كانت كفّة الأموات ترجح على كفّة الأحياء! الأموات عندما يرحلون، يتجرّدون من أسلحتهم كافّة، ويُصبحون عراة، حفاة، ضعفاء، لا يستطيعون التصدّي لضغائن البشر، ولا يقدرون على تكذيب الادّعاءات التي تُسرد بأسمائهم. سيردُّ عليَّ بنبرة واثقة بأنّه اختارني بكامل إرادته، وأنّ الحاضر يمحو الماضي، وأنّ الإنسان العاقل لا يعيش على ركام الأمس!

حاولت جاهدة مُدارة صدمتي، وبعد صراعات مع نفسي، قرّرتُ مواجهة طارق.

كان قد مرَّ أسبوع على ذلك اليوم المشؤوم. أتذكّر تلك الليلة جيداً. تعمّدتُ ارتداء ثوبٍ أخضر اللون. وضعتُ حول خصري حزاماً أسود من الجلد اللامع. دهنتُ شفتيَّ بإصبع شفاه برتقالي اللون، وزيّنتُ وجنتيَّ ببودرةورديّة خفيفة، لأضفي رونقاً على وجهي، وأداري ملامحي المرهقة من طول السهر. جلستُ أنتظر طارق في غرفة المعيشة. فوجئ بي لحظة عودته من الجامعة. سألني مُندهشاً:

– ما سرّ هذا التألق؟

– قرّرتُ أن أدعوك الليلة على العشاء.

ابتسم مُعلّقاً:

– هكذا بدون مناسبة! اليوم ليس عيد ميلادك، أو عيد ميلادي، ولا حتّى عيد زواجنا؟

– هل يجب أن تكون هناك مناسبة معيّنة لنخرج؟ أجبته بابتسامة مصطنعة.

– حسناً، سأستحمّ وأغيّر ملابسي. الأمر لن يستغرق أكثر من نصف ساعة. ماذا عن فتحية! كيف سنتركها وحدها؟

– لا تشغل بالك، لقد أخذتها سوزان قبل ساعة إلى بيتها، وسنمرّ لأخذها في طريق عودتنا.

ليس من السهل على المرأة والرجل إنهاء حياة استمرّت أعواماً بطرفة عين، دون أن يُفكّر كلٌّ منهما في تبعات قراره! التخلّص من آثار الحبّ، وإن كان من طرف واحد، كمن يُقرّر تجرُّع سمّ ليتخلّص من حياته، تاركاً شريكه وحيداً، يضرب أخماساً في أسداس وفي ذهنه ترتسم مئات من علامات الاستفهام!

اخترتُ مطعماً إيطاليّاً جميلاً في شارع سالم Salem Street، كان المفضّل لكلينا. اعتدنا ارتياده بين آونة وأخرى. ظلَّ طارق على طبيعته طوال الوقت. تحدّث عن تفاصيل يومه بالجامعة، وعن الصعوبات التي تواجهه في دراسته. كنت أستمع إليه، دون أن أعلّق على كلامه. طلبتُ طبق لازانيا، وطلب لنفسه طبق مكرونة سباغيتي بولونيز. أضاف عليهما طبق سلطة «سيزر» لنتشارك فيه. لاحظ طارق أنّني لم ألمس طبقي، أو أمدّ شوكتي إلى طبق السلطة. قال لي: «ما بك؟ منذ خروجنا من البيت، لم أسمع صوتكِ. كذلك صحنك كما هو! حياة، لقد لاحظتُ في الآونة الأخيرة أنّكِ لستِ على طبيعتك! هل هناك أمر تخفينه عنّي؟ هل وقع شيء عكّر مزاجك؟ هل أغضبتكِ دون قصد منّي؟».

كانت راقصة من أصول لاتينيّة قد أنهت وصلة رقصها، وبدأت فقرة الغناء. أخذ شابّ يُغنّي ويعزف على آلة البيانو مجموعة من أغاني فرانك سيناترا. بدأ بأغنية « Love is here to stay» (الحبّ هنا ليبقى).

دمعت عيناي. أخذتُ أردّد كلمات الأغنية مع المغنّي بصوت خافت.

رماني طارق بنظرات قلقة قائلاً: «أشعر بأنّكِ تخفين شيئاً عنّي. نظرات عينيكِ تفضحك! أنا أعرفكِ جيّداً... هيّا صارحيني. أنا زوجك، أبو ابنتك».

تأمّلته طويلاً. استجمعتُ شجاعتي، وسألته:

– لمَ تزوّجتني يا طارق؟

حدجني باستغراب، قائلاً:

– بعد كلّ هذه السنوات، تسألينني هذا السؤال؟

لم أردّ. فتحتُ حقيبتي. أخرجتُ صورته مع يسرا، ودفتر يوميّاته الأسود الصغير، ووضعتهما أمامه على الطاولة. حدّق فيهما. بلع ريقه، قائلاً:

– لا أعرف لماذا تفتحين جرحاً اندمل منذ زمن بعيد!

– لماذا تحتفظ بهذه الصورة حتّى اليوم؟ وهذه المفكّرة، ألا تخصّك؟ أليس هذا خطّك؟ ما قرأته ينفي ما تتفوّه به الآن. أصدقني القول... هل ما زلتَ تُحبّ أختي؟ هل ما زال قلبك متعلقاً بها؟

– حياة، هل تغارين من ميتة؟ أختك رحلت منذ أعوام عن عالمنا، وستظلُّ دوماً أختك.

– نعم أختي، لكنّ الأنثى بداخلي ترفض أن تُزاحمها أيّ امرأة في شريك حياتها. ثمَّ من قال إنَّ الذين نُحبّهم يُغادروننا بمجرد رحيلهم! الحبّ مثل شرايين القلب، لو ضمرت أو قُطعت، لسُلبت أرواحنا من أجسادنا. هناك سؤال حائر يدور في فكري أودّ أن تُجيبني عنه... لماذا ارتبطتَ بي، ما دمتُ ضوءاً باهتاً في فؤادك؟

– هل تُريدين مُحاسبتي على ماضٍ ولّى إلى غير رجعة؟ هذا ظلم! لقد أحببتكِ، لكنّ أرواحنا بدون أن ندري، تشتاق أحياناً لمن فارقونا! كأنّها تتقصّد تحدّي الأقدار، وتقول لها لن تستطيعي إزاحتهم من أفئدتنا. هذا كلّ شيء، صدّقيني.

– ليتني أستطيع تصديقك. عيناك تلمعان لمعاناً غريباً حينما أنطق باسم يُسرا أمامك. هل هي صدفة، أم ردّ فعل لاإرادي؟

– حياة، دعينا نُكمل حديثنا في البيت. لقد تأخّر الوقت ويجب أن نعود لأخذ فتحية من منزل صديقتك.

ركّزتُ عينيَّ في عينيه، قلتُ بنبرة واثقة:

– طارق، لقد اتّخذتُ قراري. أريد أن تُطلّقني، وبسرعة.

جحظت عيناه. لمحتُ سحابة من الدموع تحوم داخل محجريه. حاول إمساك يدي. سحبتها بسرعة. طأطأ رأسه. أشحتُ بوجهي عنه. كنتُ أنا الأخرى أحاول جاهدة كبت سيل عبراتي.

10

حاول طارق ثنيي عن قراري. قام بمحاولات عدّة لأعدل عن طلب الطلاق. وسّط صديقتي سوزان. حاولت معي هي الأخرى. كنتُ متمسّكة بطلبي. اضطرّ طارق إلى الاتّصال بوالدي. هاتفني أبي. صرخ عبر الهاتف: «هل أنتِ مجنونة؟ طارق زوج مثالي وأخلاقه عالية، ومن أسرة طيّبة، وفوق كلّ هذا هو أبو ابنتك». أجبته: «قراري نهائي، ولن أحيد عنه». حاولت أُمّي هي الأخرى. قالت لي باكية: «أليس هذا الرجل الذي كنتِ تقولين لي إنّه سيكون زوج العمر؟ ماذا حصل يا حياة لتكرهي عشرته؟». كانت كرامتي تأبى أن أفصح عن حقيقة ما جرى. كان ردّي بأنّني لا أشعر بحبّه لي، وأنّه لا يُوجد تفاهم بيننا.

رضخ طارق في نهاية الأمر. تسلّمت ورقة طلاقي في القنصلية السعوديّة.

مرَّت شهور على طلاقي. كان طارق يتهيّأ لمناقشة رسالة الدكتوراه. كان قد ترك لي الشقّة منذ طلاقنا. أقام في بيت صديق له أعزب، يسكن في Brighton، مدينة صغيرة متاخمة لمدينة بوسطن. يمرّ علينا في عطلة يوم السبت لأخذ فتحية. يُعيدها آخر النهار. كانت فتحية تسير في عامها الرابع. تعود محمّلة في كلّ مرّة بلعبة جديدة اشتراها لها والدها. في بعض الأوقات كنتُ أدعوه إلى دخول البيت لاحتساء كوب من القهوة أو الشاي. يعتذر في أحيانٍ كثيرة، ويُلبّي دعوتي في بعض الأحيان. سألني في واحدة من المرّات:

– حياة، قريباً جدّاً ستنتهي بعثتي. هل حدّدتِ تاريخ عودتك إلى جدّة؟

أطرقتُ برأسي. فاجأني سؤاله. أجبته بنبرة قلقة:

– دراستي في المعهد لم تنتهِ بعد. كذلك لديّ ارتباطات ماديّة مع سوزان يجب أن أنهيها. كنتُ قد شاركتها في مشروع صغير، يدور حول صُنع

مستلزمات منزلية يدوية، من أغطية ومفارش سُرر وطاولات. سأكون صادقة معك، أفكّر جديّاً في البحث عن عمل هنا.

رفع عينيه قائلاً بلهجة غاضبة:

– أنتِ حرّة في اتّخاذ أيّ قرارات تجدينها صالحة لك، لكنّ الأمر لا يتعلّق بكِ وحدكِ. أنا لا أستطيع ترك ابنتي هنا. وطنها وأهلها هناك.

– لكنّ حضانة ابنتي من حقّي.

– لا اعتراض عندي على ذلك، ولكن من المستحيل أن أوافق على أن تتربّى فتحية بعيداً عنّي.

حكيتُ لسوزان ما جرى بيننا. سألتني سوزان «أليس هناك متّسع للغفران؟ ألا يُوجد مجال لعودة المياه إلى مجاريها بينك وبين طارق؟». هززتُ رأسي نفياً، قائلة: «كيف تريدين منّي أن أعود إليه وأُسامحه؟ لقد جعلني أعيش معه أكذوبة كبرى! لن أسمح لأيّ رجلٍ بعد اليوم بأن يتلاعب بعواطفي. الرجل الذي يُبرّر لشريكة حياته أخطاء ، من السهل عليه أن يرتكب أخطاءً أخرى. لقد بنيتُ حياتي معه على الحبّ، ولكنّه أسّسها على الخديعة».

لم تكن حياتي سهلة بعد خروج طارق منها. كان والداي غاضبين منّي. لم يقفا معي في قراري. رفضا الاقتناع بأسباب طلاقي. لم يمنحاني آذاناً صاغية. حاولتُ إفهامهما عبر الهاتف أنّني لم أكن أريد منه سوى شيء واحد، أن يُبادلني حبّي. قال لي أبي في مكالمته الأخيرة: «ستندمين، فالحياة لا تقوم بين الزوجين على الحبّ فقط! هناك الاحترام والمودّة، وأعتقد أنّ طارق تتوافر فيه صفات حسنة كثيرة». كانت تلك آخر محادثة بيني وبين أبي.

أصبحتُ مُدخّنة منذ ذلك الوقت. كنتُ أُنهي ثلاث علب سجائر في اليوم الواحد. كان زوج سوزان لديه معارف كُثر. استطاع بفضل دائرة علاقاته الواسعة إيجاد وظيفة لي في واحدة من شركات التأمين الكبرى. حمل ابنتي الجنسية الأميركيّة، مهّد لي لاحقاً الحصول على الإقامة (البطاقة الخضراء [1]).

توظّفت بدون أن يعلم أحد ممّن حولي، خوفاً من أن يصل إلى طارق خبر حصولي على عمل. كان عملي بسيطاً ينحصر في ترتيب المواعيد عبر الهاتف، للزبائن الراغبين في عمل بوليصة تأمين على الحياة. لاحظتُ أنّ أحد مُحامي الشركة التي أعمل فيها مهتمّ بي. يمرّ بين وقت وآخر على مكتبي. يسألني عن أخباري. كان مايكل، وهذا اسمه، يبلغ من العمر أربعين عاماً. لم يسبق له

الزواج. مربوع القامة. وجهه مدوّر. أبيض البشرة. شعره أشقر سائح، بناصية خفيفة. عيناه واسعتان، مغروستان ببؤبؤين أخضرين بلون العشب في فصل الربيع. فاجأني بعد أسبوعين من تسلّمي لعملي، بدعوتي على العشاء. وعدته بأن أفكّر في الموضوع. أخبرتُ سوزان. سألتها عن رأيها! شجّعتني على قبولها. قالت لي:

– مايكل هو طوق نجاتك.

سألتها:

– كيف؟ أنتِ تتكلمين بألغاز لا أفهمها!

– لقد اقترب سفر طارق، أليس كذلك؟ أرى أن تُطمئنيه. أخبريه بأنّك ستلحقين به بعد انتهاء فترة دراستك بالمعهد، وإنهاء التزاماتك معي. هذا سيمنحك فسحة من الوقت لتختفي، وتستقرّي في مدينة أخرى. عليكِ أن تبدئي حياتك من جديد مع رجل يُحبّك. أرى أنّ مايكل مناسب. اختبريه، ربّما ينجح في الامتحان.

لم أنم تلك الليلة. صاحبني الأرق حتّى الفجر. كنتُ أفكّر في ما قالته لي سوزان. قرّرتُ بعد طول تفكير، تطبيق الخطّة. هاتفت طارق. طلبتُ منه القدوم. رسمتُ ابتسامة مصطنعة على وجهي. قلتُ له:

– لقد اقتنعتُ بكلامك. أنا موافقة على العودة مع فتحية، لكن أريدك أن تمنحني وقتاً كافياً لأنهي دراستي، وأتخلّص من جميع التزاماتي هنا.

ارتسمت الفرحة على مُحيّاه وقال:

– سأترك لكِ تكاليف السفر إلى جدّة. نحنُ في نهاية شهر أغسطس. سأمنحكِ وقتاً حتّى نهاية العام. أعتقد أنّها مدّة كافية.

أومأتُ بالموافقة. دعاني إلى حفل تخرّجه، وطلب منّي إحضار فتحية. لم أمانع. كانت الفرحة تعلو محيّاه. التقطنا صوراً معه أنا وفتحية أثناء الحفل. قال لي وهو يودّعني:

– حياة، هل هناك أمل في أن تتراجعي عن قرارك؟

– لا أعرف. أمنحني فرصة للتفكير.

عاد طارق إلى جدّة بعد حصوله على الدكتوراه. منحته أملاً زائفاً. شعرت بالارتياح بعد رحيله، كأنَّ حملاً ثقيلاً انزاح عن قلبي. كان لديّ متّسع من الوقت لتدبّر أموري. اختفيتُ مع فتحيّة بعد سفره بشهرين. لم أترك ورائي أيّ أثر

يستدلَّ به علينا. حرصتُ بعدها على تقصّي أخباره من بعيد. علمتُ بأنّه فعل المستحيل لكي يعرف طريقي. أبلغ السفارة السعوديّة بأمر اختفائنا. كان يأتي كلّ صيف إلى أميركا للبحث عنّي وعن ابنته. كنتُ مثل حفنة من الملح ذابت في أعماق المحيط، ومن المستحيل العثور عليها. بعد مرور سنتين على اختفائي، نصحه أهله وأصدقاؤه بالكفّ عن البحث، والالتفات لبناء مستقبله. لم يطأ بعدها أميركا. أصبح خلال سنوات عدّة من أشهر أطبّاء الأسنان في جدّة. فتح مجموعة عيادات مع زملاء له. كانت «الكلينيك» تحتوي على كافة التخصّصات في طبّ الأسنان. تزوّج بعد مرور خمس سنوات على طلاقنا بفتاة جاءت بصحبة والدتها لعلاج أسنانها. كانت تصغره بعشر سنوات. انجذب لها من الوهلة الأولى. تقدّم لخطبتها بعد شهر من رؤيته لها. علمتُ بأنّ زوجته أنجبت له ولدين توأمين.

---

[1] ينصُّ الدستور الأميركي على حقّ كلّ طفل يُولد على أراضي الولايات المتّحدة الأميركية في الحصول على الجنسيّة الأميركيّة.

يُقال إنّ المستقبل مرتبط بالحاضر، وشديد الصلة بالماضي. كلّه كذب وافتراء! باستطاعتنا أن نمحو ماضينا، ونستمتع بحاضرنا، ونصوغ الغد بأيدينا، بعيداً عن اجترار صور الأمس، واستحضار اليوم. الإنسان القويّ يملك صياغة غده دون اللجوء للألاعيب السحريّة.

1

تنفّستُ الصعداء مع سفر طارق إلى جدّة. هاتفتُ مايكل في مكتبه. طلبت منه الحضور. جاءني مهرولاً.

قلت له بنظرات مُغرية:

– ما رأيكَ في مساء السبت؟

حدّق في وجهي مبتهجاً وقال:

– هل أنتِ جادّة؟ سيكون أجمل يوم في حياتي. هل تُفضّلين مكاناً معيّناً، أم تتركين لي حريّة الاختيار؟

– أثق بذوقك. رددتُ بابتسامة لطيفة.

– إذن سأكون تحت باب بيتك عند السابعة.

حجز مايكل طاولة في مطعم برازيلي معروف بمنطقة كوبلي سكوير Copley Square، أثنى على طعامه، مؤكّداً أنّه سينال إعجابي. كنتُ قد اتّفقتُ مع سوزان على أن تمرّ عليَّ لأخذ فتحية لتبيت عندها. قالت لي وهي تودّعني، مُمسكة بيد ابنتي: «الليلة فرصتك. استخدمي كلّ أسلحتك الأنثويّة». ظللتُ ساعة من الزمن حائرة في اختيار الثوب الذي سأرتديه. كانت عقارب الساعة قد قاربت على السادسة، ولم أرسُ بعد على اختيار ثوب بعينه. كنتُ مضطربة. خائفة أن تفشل خطّتي. كان مايكل طوق النجاة. بيده مفتاح الحلّ لكلّ مشكلاتي. استقرَّ رأيي على ثوب أسود من الجرسيه بدون كمّين. يصل طوله حتّى الركبتين. مقفول من الأمام، ومفتوح على شكل رسمة سبعة، وتصل قصّته حتّى منطقة الخصر من الظهر. ثوب ضيّق، يُبرز مؤخّرتي، مبيّناً فخذيّ المكتنزين. وضعتُ حول جيدي قلادتي الذهبيّة التي تحمل كلمة love. وضعتُ عطري شانيل 5 المفضّل لديّ. رسمتُ خطّاً أسود من «الآيلاينير» فوق جفنيَّ

لأبرز جمال عينيَّ. مررتُ بالفرشاة على وجنتيَّ، بودرة خدود مشمشيّة اللون. صبغتُ شفتيَّ بإصبع شفاه أحمر، يتناسب مع لون بشرتي. ألقيتُ نظرة أخيرة على هيئتي في المرآة. ابتسمت. شعرتُ بالرضى. سمعتُ رنين الـ«إنتركوم». نظرتُ إلى ساعة يدي. جاء مايكل في موعده. رفعت السمّاعة. أخبرته أنّني قادمة إليه. وجدته ينتظرني عند مدخل البناية بسيّارته الكاديلاك السوداء. أطلق صفير إعجاب. نظر إليَّ مبهوراً. لثم كفّي، قائلاً: «واو، ما أجملك الليلة!». أضاءت الابتسامة صفحة وجهي. فتح باب السيّارة، قائلاً بنبرة فرح: «تفضّلي أميرتي الجميلة». شعرتُ بسعادة غامرة. كنتُ أعيش مشاعر لذيذة. شردتُ بفكري. تذكّرتُ ذلك اليوم الحزين الذي اكتشفتُ فيه خيانة طارق. طردتها على الفور. لم أكن أريد أن أنغّص على نفسي، أو أُعكّر صفاء ليلتي. وصلنا إلى المطعم. أوقف سيّارته. سلّم مفتاحها للرجل المشرف على إيقاف السيّارات الخاصّة بزبائن المطعم. تأبّطتُ ذراعه. كان مايكل رائعاً. أمضينا سهرة جميلة. كانت تصدح في أرجاء المطعم، أغنية « My heart will go on» (قلبي سيستمرّ) للمغنّية Céline Dion، تُغنّيها شابّة على أنغام فرقة صغيرة. سألني: – هل تُحبّين سيلين ديون؟

– نعم، من مُغنّياتي المفضّلات، وخاصّة هذه الأغنية الرائعة.

سألته:

– هل تعتقد بأنّ الإنسان منّا يستطيع بسهولة مسح حبّ قويّ من قلبه، ووضع حبّ آخر مكانه، خاصّة إذا فشل في المرّة الأولى؟

ابتسم مُعلّقاً:

– أنا لا أؤمن بأنّ هناك حبّاً يتيماً في حياة أيٍّ منّا. كلّ مرّة تتحرّك فيها مشاعرنا، يكون حبّنا الحقيقي. ما دامت قلوبنا تنبض، فسنظلّ نعتبره أوّل وآخر حبّ. نظلم أنفسنا إذا حاصرناها بتجربة واحدة. أجمل ما في الحبّ، أن نعيش التجربة بكلّ ما فيها وكأنّها خطوتنا الأولى.

شردتُ في كلامه. أمسك بيدي. أحسست بدفئها. دعاني للرقص. لفّ ذراعه حول خصري. وضعتُ ذراعي اليسرى حول رقبته. شعرت بأنفاسه الساخنة تلتحم بأنفاسي. كان يتأمّلني مبهوراً. الفرحة تتقافز في أرضيّة عينيه. كنتُ أنا الأخرى أحلّق من السعادة. كيف لم أنتبه أنّ للسعادة ينابيع كثيرة! كان مايكل ماهراً في جذب النساء إليه. يملك صوتاً رخيماً هادئاً، قادراً على كسب

ثقة أيّ امرأة بسهولة. أنعشَ مايكل دقّات قلبي في تلك اللحظة. أعادها إلى لحياة من جديد. تبادلنا الحديث أثناء تناولنا العشاء. حكى لي عن تجربة الحبّ المريرة التي عاشها قبل سنوات طويلة. كانت رفيقة طفولته، وصديقة الدراسة. صارحته فجأة بأنّها على علاقة بشابّ آخر. قالت له، توجّهاتنا مختلفة، والمشاعر تتبدّل مع مرور الأيّام. لدينا ذكريات جميلة مُشتركة، أعتزُّ بها، ولا أريد أن أُضيّعها. أخبرني بأنّها تزوّجت قبل سنوات قليلة ولديها طفل جميل، وأنّه قبل دعوتها لحضور حفل زفافها. نظرتُ لحظتها في وجهه. قلتُ له بنبرة اندهاش: – كيف تصفح بهذه السهولة؟ لقد استهانت بمشاعرك! جرحتك.

تأمّلني مُعلّقاً:

– مضخّة القلب لا تتوقف حين يعترضها حاجز طارئ، أو وعكة صحيّة! لا تأمني دوماً لقلبك. أحياناً يتهاوى، ويُصبح مثل قلب طفل صغير، لم يزل في مرحلة اكتشاف معاني الحياة. لقد اعتبرت قصّتي معها رحلة قصيرة وانتهت. نظلم أنفسنا حين نجعلها تدور في فلك الماضي. أنا لا أحبُّ أن أقسو على نفسي. أحبُّ أن أدلّلها كي تتحرّر من غضبها. ماذا عنك؟ حدّثيني عن نفسك.

حكيتُ له قصّتي مع طارق من ألفها إلى يائها. أخذ مايكل شهيقاً وزفيراً طويلين. شبك أصابع يديَّ بين أصابع يديه، قال لي: – من الواضح أنّك نزعت زوجك من قلبك. يظهر أنّ الطبيعة البشريّة واحدة، مهما اختلفت الثقافات والديانات. لقد تيقّنت الآن أنّ الناس يتشابهون في آلامهم وأفراحهم. الحبّ يبقى حبّاً، والكره يبقى كرهاً في قاموس الإنسان. أنا، كما قلتُ لكِ، من الفئة التي لا تهوى النبش في بؤر الماضي. أؤمن بأنّ علينا خلق مساحة من التسامح داخل أفئدتنا.

– لا أفهمك! هل كنتَ تُريدني أن أصفح عنه بعد أن خدعني كلّ هذه السنوات التي أمضيتها معه؟ أجبته بانفعال.

– أعرف أنّ رفع شعار الغفران ليس بالأمر السهل، ولا يقدر عليه كلّ البشر! وأدرك أنّ ردود فعلنا تنبع من قيمة ما نملكه، وكلما كانت صدمتنا كبيرة فيمن أحبباهم، جاءت ردود فعلنا أعنف عليهم وعلى أنفسنا. من الواضح يا عزيزتي أنّكِ كنتِ تُحبّين زوجك حبّاً جمّاً، ولذا جاء ردّ فعلك بالغ القسوة! مع كلّ هذا يجب علينا الحفاظ على نبتة الغفران في أفئدتنا، كي نُخفّف من وجعنا

ومن حجم خسارتنا تجاه الذين أحببناهم ووثقنا بهم، وأساؤوا إلينا بقصد أو ربّما بدون قصد منهم.

توقّف عن الكلام. طفت ابتسامة صافية على صفحة وجهه. لثم يديَّ بشفتيه. شعرت بدفئهما. نظر بحنوّ في عينيَّ، متابعاً: – عموماً، ما جرى يصبُّ في مصلحتي. أنا رجل محظوظ. تُرى، هل تقبلين فتح صفحة جديدة معي؟ هل أنتِ على استعداد لبدء علاقة جادّة؟

ابتسمت. أرخيت عينيَّ، قائلة:

– أودّ أن أكون صريحة معك. جراحي لم تندمل بعد.

تأمّلني بنظرات حانية. ربّت بيده ظاهر كفّي. شعرتُ بدقّات قلبي تتسارع. «تُرى، هل القدر أسرع في تكريمي؟ هل أراد تطبيب نفسي المنكسرة؟» سألت نفسي.

أفرطنا ليلتها في الشراب. احتسينا زجاجتين من النبيذ الأحمر المعتّق. اقترح مايكل أن نعود بسيّارة أجرة. كان من الصعب عليه القيادة. أعطى السائق عنوان بيتي. طلب من السائق الانتظار. نزل من السيّارة ليودّعني. طبعتُ قبلة على صدغه. شكرته على اللحظات الممتعة التي قضيناها معاً.

ذهبتُ صبيحة اليوم التالي إلى بيت سوزان لأخذ جاسمين. سألتني بنبرة فضوليّة: – طمئنيني، كيف سارت ليلتك مع مايكل؟

– لم أحظَ منذ سنوات بليلة رائعة كهذه. مايكل شخصية فريدة.

– إذن ستكون هناك لقاءات أخرى! ابتسمت مُعلّقة وغمزت لي بعينها.

تكرّرت لقاءاتنا وأحاديثنا الهاتفيّة. حكيتُ لمايكل كلّ شيء عن حياتي بأدق التفاصيل، وعرفتُ أنا الأخرى كلّ شيء عنه. قال لي في واحد من لقاءاتنا: «أريد أن نبدأ حياتنا معاً بصفحات بيضاء».

بعد مرور شهر على بدء علاقتنا، دعاني على العشاء لأول مرّة في شقته. قال لي مازحاً: «أنا طبّاخ ماهر. إذا تذوّقتِ طعم قطع «الستيك» التي أطهوها، فستدمنين عليها. كما أنّني بارع في عمل مُختلف السلطات». ليلتها وقفتُ أمام خزانتي حائرة في اختيار ما سأرتديه! استقرّ رأيي على فستان بسيط من الكريب ذي اللون البنفسجي الذي أفضّله، يُبيّن تفاصيل جسدي، ويصل طوله حتّى الركبتين، بكمّين قصيرين يُبيّنان جانبَي الإبطين، وبفتحة من الأمام تُظهر مجرى نهديَّ.

استقبلني على باب شقته عند الساعة السابعة. كانت الشموع مُضاءة على طاولة الطعام، وموسيقى هادئة لواحدة من أغاني فرانك سيناترا تنبعث من جهاز مُشغّل الأسطوانات. قال لي: – هناك كمّ من الأسطوانات، بإمكانك اختيار ما تُحبّين سماعه.

– اختيارك موفّق. أنا من أشدّ المعجبين بأغاني فرانك سيناترا. أجبته باسمة.

قلتُ له بعد أن فرغنا من العشاء: «ظننتك تُبالغ حين أثنيتَ على مهارتك في الطبخ. كان عشاءً لذيذاً بالفعل».

بدأ رأسي يدور من كؤوس النبيذ التي احتسيناها أثناء تناولنا العشاء. مدّ لي مايكل يده، قائلاً: «هل تسمحين لي بمراقصتك؟». قمتُ من مكاني. أحاط وسطي بذراعه. أسندتُ رأسي إلى كتفه. بدأت أقدامنا تخطو معاً على أنغام الموسيقى. جسدانا يزدادان التصاقاً. طبع قبلة طويلة على فمي. شعرتُ بالرغبة تتدفّق في شراييني، وبنشوة الوصال تُدغدغ جسدي. كانت ليلة استثنائيّة، دمّرت فيها كلّ أوصال الماضي بلا رحمة. أخرجت أحشاء ذكرياتي مع طارق ومزّقتها بوحشيّة على جسد مايكل. جعلته يخترقني بيسر. رغبتُ في طمس آثار طارق في كلّ بقعة من جسدي. أعطيته بسخاء. عشتُ غيبوبة النشوة معه. نجحتُ ليلتها في أسره. في أن أجعله يقع تحت رحمة نداء الجسد. تلك الجمرة المستعرة التي تجعل العاشق يُدمن جلد محبوبته، دون أن تُشعره بأنّه مُقيّد بأغلالها، رامياً تحت قدميها كلّ غالٍ وثمين.

عرض مايكل عليَّ الزواج. قال لي: «لن أجعلك تندمين. سأفعل كلّ ما بوسعي لإسعادك. وستكون ابنتك بمكانة ابنتي التي لم أنجبها». وقف مايكل بجانبي بكلّ ما يملك من مال. أطاعني في كلّ خططي. اقترح أن نُسافر إلى مدينة بوكاراتون. رأى أنّها مدينة آمنة لن يعرفني فيها أحد. كان يملك منزلاً فيها. قدّمه لي بيعاً وشراءً باسمي. حقّق لي حُلمي. فتح لي متجراً صغيراً للملابس الجاهزة. استطاع بفضل شبكة علاقاته الواسعة، وكون ابنتي تحمل الجنسيّة الأميركيّة، أن يُسرع في استخراج بطاقة إقامتي. حدثت كلّ هذه الأمور في فترة وجيزة. بعد استقرارنا في بوكاراتون بشهرين، تزوّجنا زواجاً مدنيّاً. طلبتُ منه أن أكنّى بلقب عائلته. أصبح اسمي مريام باركر. تبنّى ابنتي بحكم وصايتي عليها. قلتُ لستيف وقتها: – أحبّ زهرة الياسمين.

– إذن نُغيّر اسمها من فتحيّة إلى جاسمين.
هكذا أصبح اسمها جاسمين مايكل باركر.

2

كنتُ أتلصّص على أخبار أهلي من بعيد بطرق كثيرة. علمت بأنّ أبي مات كمداً عليَّ بعد اختفائي بثلاث سنوات، وأنّ أمّي ظلّت تُعاني أعواماً طويلة من ألم رحيل أبي، ومن فجيعة فقدان ابنتيها. حزنتُ كثيراً على رحيل أبي. شعرتُ بأنّني السبب في موته. سرعان ما طردتُ الهمَّ عنّي. أقنعتُ نفسي بأنّ الأعمار بيد الله، وبأنّني اتّخذتُ القرار الصائب بابتعادي عن الجميع. لا أعرف من أين ورثتُ هذه القسوة! ولا أدري لماذا أدرتُ ظهري لأهلي! هل لأنّني رغبتُ بشدّة في الاحتفاظ وحدي بابنتي، وسلبها هويّتها الأصلية وقطع الخيط الوحيد الذي يربطني بأبيها؟ هل كان جلّ همّي، الانتقام من طارق، بحرمانه من ابنته؟

أتذكّر في العام الثالث لزواجنا، فاجأني مايكل بحجز تذكرتين إلى مدينة نيويورك لمدّة أسبوع. تركتُ جاسمين عند صديقتي سوزان. كنتُ أُدرك مدى تعلّقها بها. ترى فيها الابنة التي لم تستطع إنجابها. كنتُ أتركها عندها وأنا مطمئنّة، مرتاحة البال. كان مايكل مُدركاً عشقي للفنون وللمسارح وحفلات الأوبرا. نزلنا أيّامها بفندق «ماريوت» الواقع في منطقة مانهاتن، حيث تقع مسارح «برودواي»، الشهيرة، التي تغلّبت على مسارح «ويست إند» بلندن.

كان مايكل قد فاجأني بالحجز في مسرحية الباليه الشهيرة «بحيرة البجع» للموسيقي الروسي تشايكوفسكي. لوّح لي باسماً بالتذكرتين. طوال عرض المسرحية، كنتُ أنظر بعينين حالمتين إلى الراقصات. أتخيّل جاسمين بينهنّ، تتمايل بجسدها الرشيق.

عند خروجنا، قلتُ لمايكل:

– حلمي أن تُصبح جاسمين راقصة باليه مشهورة. أن أراها ترقص على مسارح البرودواي وتبهر الجميع برقصها.

أمسك مايكل لحظتها بيدي، قائلاً بنبرة حانية:

– جاسمين ما زالت صغيرة. دعيها تنسج حلمها بيديها. عندما نبني الأحلام لمن نحبّ، فهذا يعني أنّنا نسلبهم حقهم في اختيار طريقهم، وأنّنا أنانيون لا نُفكّر سوى بإرضاء أنفسنا، غير آبهين إن هدمنا صروح أحلامهم على رؤوسهم. روعة الأحلام يا حبيبتي تكمن في أن تكون بصنيعة أيدينا لا بصنيعة الآخرين.

لم أعلّق على ما قاله، كانت تلك الأمنية مُسيطرة على تفكيري، وكنت رافضة في قرارة نفسي أن يُناقشني فيها أحد وإن كان مايكل.

كنّا نُهدر النهار في ميدان «التايمز» في التسوّق والفرجة على واجهات المحالّ، وفي الليل نرتاد الحانات والمطاعم الفخمة. لضيق الوقت، لم نستطع سوى حضور حفلة أوبرا واحدة، ومشاهدة مسرحية «شيكاغو»، وزيارة معرضين من معارض الفنّ التشكيلي. حرص مايكل على أن يأخذني إلى جزيرة الحريّة، الواقعة في خليج نيويورك. ذهبنا إلى هناك بالقارب السياحي لنُشاهد تمثال الحريّة. كان تمثال الحريّة الذي يرمز إلى سيّدة تحرّرت من قيود الاستبداد، هو نفسه الموجود في جزيرة البجع بباريس، وإن كان تمثال الحريّة بنيويورك يفوقه حجماً بأربعة أضعاف. سألت مايكل وأنا أتأمّل التمثال عن بعد:

– ما تظنّ الإنسان بحاجة إليه أكثر؟ الحرّية أم الأمان؟

أطرق برأسه هنيهة، ثم أجابني:

– الحرّية هي الطريق لتحقيق الأمان. كيف سنشعر بالأمان إن كانت أيدينا وأرجلنا مقيّدة كالعبيد؟

– لكن هناك أناس يعيشون أحراراً، إلّا أنّهم يفتقدون الأمان في حياتهم. أنا أرى أن لا غنى للإنسان عن كليهما. إذا توفّر هذان العنصران تحققت السعادة.

ابتسم حينها مايكل، مُعلّقاً:

– منذ بدء الخليقة وروح الإنسان تهفو للحرية. كلّ الانتهاكات التي وقعت لمفكّرين وفلاسفة عظماء عبر العصور وإلى يومنا هذا، كانت بسبب رفعهم شعلة الحريّة. أرى أنّ الأمان سيتحقق بعد إرساء الحرّيات لكلّ شعوب العالم بدون تفريق بين غنيّ وفقير، وامرأة ورجل، وبين جنس وآخر.

أذكر تحديداً متى تنصّرت. كان ذلك بعد زواجي بمايكل بسنتين. اخترتُ اعتناق مذهب البروتستانت، الذي يدين به مايكل، ويتبعه أكثر من نصف سكّان الولايات المتحدة الأميركيّة. كان قراراً جريئاً منّي. لا أعرف حتّى اليوم لماذا اتّخذتُ ذلك القرار. هل كان لرغبتي في التنصّل من حياتي السابقة بكلّ تفاصيلها، واجتثاث ذكرياتي من جذورها، وبدء حياة مُغايرة؟ هل أردتُ أن أُرضي مايكل، وأبني جسراً قويّاً من الثقة بيننا، باتّباع ديانته؟ هل لكي أؤكّد لمايكل مقدار حبّي له؟ هل لقناعتي التامّة بتعاليم الدين المسيحي، ونفوري من عهد الصحوة الذي عشتُ فيه، وعانى منه أبناء جيلي، وأحال حياتنا إلى جحيم؟ من السخف أن أضع لنفسي هذا الكمّ من التبريرات، لتمرير مواقفي وقراراتي. أعتقد أنّني بداخلي لا أعرف السبب! سألني مايكل أيّامها:

– هل أنتِ جادّة؟ فكّري جيّداً. أنا لا تهمّني ديانتك، فهذه حريّتك الشخصيّة. ثقي بأنّ اختلاف ديانتينا، لن يشكّل حاجزاً بيني وبينك. حبّي لك قادر على مواجهة أيّ عوائق فكريّة، أو موروثات اجتماعيّة!

أجبته:

– أنا مقتنعة بقراري.

صرتُ أواظب على حضور قدّاس يوم الأحد مع مايكل، وأحرص على اصطحاب ابنتي جاسمين معي.

كنتُ أعيش في جنّة صنعها لي مايكل على الأرض. أعترف بأنّ مايكل أحبّني في بداية علاقتنا أكثر ممّا أحببته، لكن مع مرور السنوات، وعشرته الرائعة، تعلّق قلبي به. صار بالنسبة إليّ كلّ شيء. الأب الذي غاب عنّي، والأخ الذي أحنُّ لرؤيته، والحبيب الذي لا غنى لي عنه. في بداية زواجنا، كان يمرّ على بالي خاطر غريب، أنّني استغللتُ حبّه كي أحصل على مرادي، لكنّي كنت سرعان ما أطرد تلك الفكرة الشيطانيّة. أردّد بأعماقي... بل أحبّه ولا أتصوّر حياتي بدونه. يكفيني أنّه منحني الأمان، ووفر الحماية لي ولابنتي. في أحيانٍ نادرة، وأنا مستغرقة في النوم، تُفاجئني رائحة طارق، مخترقة خياشيمي بقوّة. أهبُّ فزعة. أفتح عينيَّ على آخرهما، لأطمئن نفسي أنّني نائمة بجوار مايكل. ألتصق به. أُحيط رقبته بذراعي. أستكمل نومي.

في فترات متباعدة، حين أكون وحدي، يُحرّكني فضول عجيب. أفتح خزانتي. أدسُّ يدي تحت ملابسي المطويّة. أُخرج صورة طارق المحشورة في

جيب من جيوب محفظتي القديمة. أتأمّلها بغيظ. أسأل نفسي... لماذا لم يزل الغضب يُلازمني تجاهه؟ لماذا حقدي نحوه لم يتلاشَ حتّى الآن؟ ألم يُعوّضني الله برجل أغدق عليَّ حبّاً وحناناً، تحلم به كلّ امرأة؟ لماذا لا أريد نسيان هذا الرجل؟ هل أصبح يُشكّل عقدة في حياتي، أم ما زلتُ أحمل له بقايا من مشاعر قديمة؟ قال لي مايكل ذات مرّة: «التحرّر من عواصف الغضب بدواخلنا هو البداية لكي نعيش حياة صحيّة».

التهيتُ بحياتي الجديدة. كان متجر بيع الملابس الجاهزة يجلب لي دخلاً لا بأس به، ومكتب المحاماة الذي أنشأه مايكل مع شريكه وليم توماس بمدينة بوكاراتون يدرُّ عليهما مالاً وفيراً. كنتُ أعيش مع مايكل في بحبوحة ورخاء. أصبح لنا شبكة واسعة من الأصدقاء. نلتقي في العطل الأسبوعيّة مع عدد منهم. نتعشّى ونسهر في أحد المطاعم بميامي. كان مايكل يهتمُّ كثيراً بجاسمين. يُخصّص لها وقتاً يقضيه معها. يصطحبها في العطل الأسبوعية إلى حديقة Sugar Sand Park. كانت جاسمين تهوى تسلّق الطوابق الخشبيّة واللهو بين المناظر الخشبية المنحوتة على شكل وجوه، وتصرُّ على ركوب الحصان الخشبي الذي يدور على صوت موسيقى جميلة. كان مايكل يُراقبها عن كثب، خوفاً من أن تقع على الأرض. كنّا نصطحبها أحياناً إلى متحف بوكاراتون للأطفال. كانت تجد متعة في استخدام القطع المعدنيّة، والشيكات الورقيّة، حيث كان المعرض يتضمّن بنكاً ومكتب بريد، لتعويد الأطفال على هذا النوع من التعاملات. تمنّيتُ أن أنجب من مايكل، لكنّه كان عقيماً. أجمع الأطبّاء على أنّ إمكانيّة علاجه ميؤوس منها، وأسهم ذلك في تعلّقه أكثر فأكثر بجاسمين. كان ينظر إليها بعين الأب. يرى فيها ابنة حقيقيّة روت تعطّشه للأبوّة. كان يُغدق عليها الهدايا، ويشتري لها كلّ ما ترغب فيه. ألفتُ نظره أن لا يتمادى في تدليلها، فيضحك، قائلاً: «العطاء لا يُفسد، بل الحرمان هو ما يُدمّر النفوس يا حبيبتي». كانت جاسمين تُحبّه كثيراً. كانت لم تزل طفلة حين غادرنا بوسطن. لم تصمد ذاكرتها طويلاً أمام دوران عجلة الأيّام. انطبعت صورة مايكل سريعاً في ذهنها، لتأخذ بسهولة مكان صورة طارق. غدا مايكل أباها الفعلي. كنتُ سعيدة بالعائلة التي أسهمت مع مايكل في تأسيسها. كان مايكل يتمتّع بروح طيّبة، مرحة، معطاءة، صبورة. أتذكّر في بداية زواجنا، كنتُ كثيرة التوتّر،

أصرخ، وأبكي أحياناً بدون سبب! كان يضمّني في صدره. يُهدّئ من روعي. يقول لي بنبرة حانية: «لا تخافي، أنا بجانبك».

فجأة مات مايكل. اتّصلوا بي من مكتبه. أبلغوني أنّه سقط فجأة أمام الجميع، بعدما أنهى اجتماعه مع موظفي مكتبه. حاولوا إسعافه بنقله إلى أقرب مستشفى. لم يصمد، مات قبل وصوله إلى هناك. كانت مراسم جنازته تغصُّ بأعداد كبيرة من أصدقائه ومعارفه. قلتُ في مراسم تأبينه: «من الصعب أن تُكافئك الدنيا مرّتين برجل مثل مايكل. كان مُحبّاً لي ولابنته. كان زوجاً مُخلصاً وأباً رائعاً. لن أنساه أبداً».

كانت السنوات السبع التي عشتها مع مايكل من أجمل سنوات عمري. بعد رحيله، عانيتُ كثيراً مع جاسمين. كانت تسأل عنه طوال الوقت. رفضت تقبّل فكرة موته. تقول لي باكية: «لقد وعدني أن لا يتركني. لمَ أخلفَ وعده لي!». كنتُ أسأل نفسي أيّامها... لمَ أنا والموت رفيقا درب؟ لمَ يتقصّد الموت خطف من أحبّهم؟ كانت محطّات الوداع كثيرة في حياتي. كلّما قلبت صفحة من صفحات وجعي، فاجأني القدر بضربة موجعة على رأسي.

بعد موت مايكل، صار يحضرني في منامي حلمٌ أحداثه لا تتغيّر: أنّني أنزف من أذنيَّ وأنفي. أستيقظ فزعة كأنَّني أعوم في فراشي وسط بحر من الدماء. دلّتني سوزان إلى طبيب نفسي، أثنت عليه كثيراً. طمأنني بأنّ مثل هذه العوارض يتعرّض لها بعض الناس الذين يفقدون عزيزاً لديهم. كتب لي حبوباً مهدّئة. نصحني بعدم العزلة وبالتواصل مع الصديقات والسعي لتكوين شبكة معارف جديدة. مع مرور الأيام توقّفت كوابيسي، لكنّ الأرق ظلَّ يُلازمني.

3

بدأتُ أُعيد ترتيب حياتي من جديد. ترك لي مايكل إرثاً جيداً. مكتب المحاماة الذي يملك نصفه، والذي بعته لاحقاً لوليم توماس، صديق عمره وشريكه في المكتب. وضعت ثمنه بحسابي في البنك، بجانب الرصيد الكبير الذي ورثته عنه. كانت والدة مايكل قد تُوفّيت وهو في سنّ صغيرة. ورث عنها بيتاً جميلاً بمدينة سان دييغو San Diego في ولاية كاليفورنيا.

كان بيتاً جميلاً تُحيط به حديقة واسعة، مُغطاة بالعشب الأخضر، ومزروعة بعدد من أشجار الفاكهة. كان مايكل يُحبّه. كنّا ننزل فيه بفترات متباعدة، حين يرغب في أخذ عطلة قصيرة يستريح فيها من ضغوط العمل. قرّر مايكل فجأة بيعه. لم يتناقش معي، كعادته عندما يريد الإقدام على أيّ أمر يخصّنا معاً. أخبرني في عيد زواجنا السادس بأنّه أتمَّ صفقة البيع، ووضع ثمنه في حسابي. سألته يومها «لمَ فعلت هذا؟ أعلم بأنّ هذا المنزل عزيز عليك». قبّلني في جبيني، قائلاً: «أنتِ تستحقين أكثر. يكفي السعادة التي منحتني إيّاها منذ زواجنا. لو عادت بي السنين إلى الوراء، لما تردّدت لحظة في الارتباط بك. أنا رجل محظوظ». لم أكن أعلم بأنّ مايكل كان وقتها قد بدأ يعاني مشاكل في قلبه. لم يُصارحني بمرضه. أراد أن يُؤمّن لي كلّ شيء قبل رحيله. كان لديه أمل ضعيف في أن يفلح الأطبّاء في مداوة قلبه العليل. فوجئتُ مثل الجميع بموته.

أوّل عطلة صيفيّة تمرّ علينا بعد رحيل مايكل كانت صعبة بالنسبة لي ولجاسمين. قرّرتُ أن أكسر حاجز الحزن. أخذتُ جاسمين وسافرنا بجولة في مدينتي لندن وباريس. كانت محطتنا الأولى لندن. نزلنا في منطقة نايتس بريدج. في نفس الفندق الذي نزلتُ فيه مع مايكل عند زيارتنا اليتيمة للندن

قبل سنوات عدّة. كان فندقاً صغيراً، قريباً من متجر هارودز الشهير. طلبت من موظف الاستقبال إنزالي بنفس الغرفة التي أقمتُ فيها سابقاً مع مايكل. ابتسم حينها الموظّف قائلاً: «يبدو أنّ ذكرى غالية تربطك بهذه الغرفة. أنتِ محظوظة. اليوم صباحاً فقط غادرها النزيل وأصبحت شاغرة». شكرته بفرحة.

لحظة دخولي الغرفة، سمعتُ دقّات قلبي تعلو كضربات الدفوف. تخيّلتُ روح مايكل تدور في أرجائها. انحدرت دمعتان على خدّيَّ. مسحتهما بسرعة. داريتُ انفعالاتي الحزينة عن جاسمين. كنتُ حريصة على أن أبعث البهجة في حياة ابنتي. أمضينا عشرة أيّام في لندن. كنتُ أصطحب جاسمين إلى حديقة الهايد بارك. نذهب إليها سيراً على الأقدام. كانت تستمتع بإلقاء فتات الخبز للبجع، بينما أجلس على أحد المقاعد الخشبيّة، وأراقبها بفرحة، مُطلقة العنان لذكرياتي. في تلك الرحلة، قادتني الصدفة لرؤية أخي ياسين. كان ذلك أثناء زيارتي لأحد معارض الفنّ التشكيلي، الذي كان وما زال ضمن قائمة هواياتي التي أعشقها. ذهبت بمفردي بعد أن فضّلت جاسمين انتظاري بالغرفة. عدتُ يومها إلى الفندق، وقدماي غير قادرتين على حملي. سألتني يومها جاسمين: «ما بكِ يا أمّي؟ لماذا وجهك شاحب؟ ألم تستمتعي بلوحات المعرض التي ذهبت لمشاهدتها؟». حرتُ ماذا أقول وقتها. كلّ الذي فعلته أنّني اكتفيتُ بالقول: «على العكس، كانت لوحات رائعة جدّاً، لكن أصابني الإجهاد من كثرة اللفّ على قدميَّ».

سافرنا بعدها إلى باريس. كانت زيارتنا الأولى لها. أمضينا فيها وقتاً لا بأس به. لاحظتُ أنّ جاسمين لم تستهوِها باريس. سألتها:

– ما رأيك في باريس؟

هزّت حينها كتفيها قائلة:

– أجمل ما فيها حلوى الكريب [1] وشوكولاتة النوتيلا. ميامي أجمل بكثير. أنتظر العودة إلى هناك بفارغ الصبر.

عُدنا إلى بيتنا، بداية شهر سبتمبر. كان الطقس قد بدأ يتحرّر من الرطوبة المرتبطة دوماً بشهر أغسطس في مدينة بوكاراتون.

مع مرور السنوات بدأت الوحدة تتسرّب مجدّداً إلى حياتي. حاولتُ الانغماس من جديد في أعمال متجري.

كعادتي، كنتُ أذهب إلى قدّاس يوم الأحد. أضيء الشموع لأجل مايكل. أسهم حزني العارم عليه في بهتان وجه طارق من فكري. بدأت ملامحه تخبو تدريجاً، ولم تعد تستحوذ على حيّز كبير في عقلي. أحياناً تحضرني قسمات وجهه كلما نظرت إلى صفحة وجه ابنتي. ألاحظ أنّ ملامحها قد بدأت تقترب أكثر من ملامح أبيها. نفس الابتسامة الجذّابة. نفس النظرات الحانية، نفس عظمة الأنف المُدبّب، والذقن المسحوب.

أحياناً تُحاصرني تساؤلات، أحار في الإجابة عنها... هل سأضطرّ يوماً إلى إخبار جاسمين بهويّتها الحقيقيّة؟ هل يجب عليَّ أن أحكي لها قصّتي مع أبيها من البداية إلى النهاية؟ أليس الوقت مُبكّراً على قشع الحقيقة أمامها؟ ما فائدة نبش الماضي، إذا تمّ ردمه تحت الثرى؟

بعد موت مايكل، لم ألتقِ برجلٍ يُشبع عواطفي، أو يحظى باهتمامي. جميعهم لا يستحقون محاولة الاستمرار معهم. كانت المقارنة دوماً حاضرة، وكانت ترجّح على الفور كفّة مايكل. كانت كلها علاقات عابرة، تنتهي بعد مرور أقلّ من شهر على بدئها. كانوا مجرّد أشباح باهتة، أُبدّد بهم وحشة وحدتي، وأهرب من خلالهم من أطياف الماضي.

مع مرور السنوات، لم يعد للموروثات التي تربّيتُ عليها تأثير قويّ في مجرى حياتي. اضمحلّت مثل الكثير من المشاهد التي نشأتُ عليها، والملامح التي ترعرعت معها. حتّى حنيني لمدينتي جدّة لم يعد يلحُّ عليَّ كسابق عهدي. أحياناً نادرة، أهبُّ من نومي على أصوات متداخلة تُناديني، مُشابهة لأصوات أمّي وأبي ويسرا وياسين. أقفز من فراشي. أهرع إلى جهاز الكمبيوتر. أضع يدي على مؤشّر غوغل. أفتح على مدينة جدّة. أتفرّج على صور معالمها الجديدة. أحسّها قد غدت مدينة غريبة عنّي، لا أمتُّ لها بصلة.

عشقتُ أميركا بكلّ ما فيها. كنتُ آخذ جاسمين في كلّ عيد فصح، إلى ولاية من الولايات. سافرنا إلى نيويورك عدّة مرّات. كانت مدينة كلّ ما فيها ينطق بالعظمة. ظلّت منطقة مانهاتن تبهرني. مسارحها، فنونها، حفلاتها الموسيقيّة، دور الأزياء، مراكزها التجارية، ومبانيها السكنيّة القديمة الطراز. كانت تختلف عن مدينة لوس أنجلس التي كان يُطلق عليها مدينة الفنّ والفنّانين لوجود هوليوود فيها، مقرّ السينما الأميركيّة وصانعة النجوم.

كانت ابنتي جاسمين قد دخلت عامها الرابع عشر، حين وقعت أحداث الحادي عشر من سبتمبر. كان الجميع يصبّون جام غضبهم على الإسلام والمسلمين. أسمعهم في المقاهي، وعبر قنوات التلفاز، يرشقون السعودية بسهام الاتّهام. يردّدون أنّها منبع الإرهاب. كنتُ أتمنّى أن أواجه الجميع قائلة: «أبي لم يكن إرهابيّاً. أخي ليس متطرّفاً. شعب بلدي ليس كارهاً لشعوب الأرض، بل مُحبّ لها».

أتذكّر أنّ جاسمين عادت يوماً من المدرسة غاضبة. قالت لي: «أمّي، يقولون إنّ السعوديّة تُريد تدمير أميركا! أنا أكره هذا البلد، وأكره شعبه بقدر كرهه لنا». ضممتها إلى صدري لحظتها، وقلتُ لها بعينين دامعتين: «لن أسمح بأن يُصيبكِ مكروه». ليلتها انهمرت دموعي بدون توقف. سياط وخز الضمير أخذت تُلهب جسدي. أحسستُ بأنّني ارتكبتُ جُرماً فظيعاً بحق ابنتي. دفعتها دون أن تدري إلى كره جذورها. تمنّيتُ لو ملكت الشجاعة لمصارحتها بأنّ في عروقها تجري دماء عربيّة. بأنّ أباها لم يكن يوماً كارهاً للبلد الذي تعلّم فيه، وأنّه شخص مُسالم.

كانت جاسمين قد أصبحت في عمر الزهور. غدت أنثى جميلة، عيون الصبية تتّجه إليها أينما حلّت. بدأت ملامحها تتشكّل، وجسدها يتبلور، وشخصيتها تتجسّد. كانت تُجادلني طوال الوقت. ترفض الانصياع لمطالبي دون أن أوضّح لها الأسباب. اكتشفتُ أنّها ورثت منّي عنادي. أيقنتُ أنّ الشخصيات التي تتوافق صفاتها، تصطدم كثيراً بعضها مع بعض. كان ستيف مُقارباً لمرحلتها العمريّة. شابّ ينتمي لأسرة متواضعة. وسيم، يملك عينين عسليتين شديدتي الصفاء، وشعراً كستنائياً مموّجاً. بشرته بيضاء، تُظهر عروق جسده من شدّة نصاعتها. له قامة رياضيّة متناسقة. عارضتُ بشدّة علاقتهما. احتجّت على قراري. قالت لي ذات مرّة بنبرة غاضبة: «لا أعلم لماذا لا يروقك ستيف! ولا أعرف مبعث قلقك! قلتُ لك مراراً وتكراراً إنّ ستيف مجرّد صديق أرتاح لصحبته». اقترحتُ عليها أن تحضره للبيت، لتبقى تحت أنظاري. اندهشت من مواقفي المتصلّبة معها. لم أصارحها يوماً بأنّني كنتُ أريد الحفاظ على مشاعرها. أنّني كنتُ أريد أن أحميها من نفسها. أنّ خوفي عليها نابع من توجّسي من أن لا تُحسن الاختيار مثلي، وتقع في حبّ رجل لا يُقدّر حبّها. كنتُ أجد صعوبة في كبح جماح مراهقة تتطلّع لخوض تجارب جديدة بنفسها. كانت

جاسمين ابنة الثقافة الأميركيّة. ثقافة تمنحها حق الاختيار، والاستقلالية، وممارسة حرّيتها الجنسيّة مع بلوغها سنّ الثامنة عشرة. كان عليَّ أن أُهيّئ نفسي لاستقبال كلّ هذه المتغيّرات برحابة صدر.

---

[1] حلوى تشتهر بها فرنسا وصارت منتشرة في دول أوروبيّة وعربيّة، وهي عبارة عن عجينة رقيقة تُحشى بالشوكولاتة والموز، أو بالسكّر والكراميل أو بحشوات أخرى، تُصنع على صاج ساخن.

4

ذات ليلة قمتُ من نومي متكدّرة. كانت عقارب الساعة قد تجاوزت الواحدة صباحاً. اتّجهتُ صوب المطبخ. صنعتُ كوباً من النسكافيه. أشعلت لنفسي سيجارة. جلستُ على أحد كراسيّ طاولة المطبخ. أخذتُ أحتسي قهوتي، وأُدخّن سيجارتي في صمت. سرحتُ في حلقات الدخان المنبعث من سيجارتي. حاصرتني دائرة التساؤلات من جديد... ما قيمة الحياة بدون حبّ؟ هل المرأة بحاجة دوماً لقنّينة حبّ، تضع منها قطرات على عنقها صباحاً ومساءً، كي تبتهج وتشعر بالسعادة؟ لقد أحببتُ طارق بكلّ جوارحي، لكنّه لم يستطع أن يقلب قلبه لجهتي، وظلّ متعلّقاً بأختي حتّى بعد رحيلها عن الدنيا. أحببتُ أمّي وأبي لكنّني خذلتهما وتسبّبتُ بتعاستهما. شعرت بثقل في رأسي. كان التفكير قد أعيا بدني. دلفتُ إلى غرفتي. تأمّلتُ انعكاس وجهي في المرآة. لاحظتُ أنّ عينيّ قد خفت بريقهما. صفحة وجهي يكسوها الأسى. «كلّ تجربة خذلان تتجرّعها المرأة من رجل أحبّته، تترك بصمتها على وجهها»، قلتُ في نفسي. أخرجتُ تنهيدة طويلة. بلعتُ قرصين من المهدّئ الذي اعتدتُ تناوله. رميت نفسي على سريري. سارع القرصان في دفعي لنوم عميق.

طلبت منّي صديقتي سوزان أن نلتقي بأحد المقاهي في وسط المدينة. أخبرتني أنّها تُريدني في أمر هام. ارتديت طقماً رياضياً جمليّ اللون، مطبوعاً عليه علامة كبيرة من الظهر، تدلّ على ماركة «فرساتشي». سرّحتُ شعري القصير بسرعة. كان الشعر الأبيض قد بدأ يغزو خصلاته في حذر. لم ألقِ بالاً له. طلبنا كوبين من الـ«كابوتشينو».

أخذت سوزان رشفة من كوبها. نظرت في وجهي، قائلة:

– بدأتُ أقلق عليكِ. لم تعودي مريام التي أعرفها! أين ابتسامتك؟ أين روحك المرحة؟

أطلقتُ زفرة:

– أنا نفسي صرتُ أتعجّب من أحوالي. منذ موت مايكل وأنا أشعر بوحدة قاتلة.

– عزيزتي، لقد مضت سنوات على موت مايكل. لقد آن الأوان لأن تبحثي عن حياة جديدة. اسمعي، هناك زميل لزوجي في العمل، اسمه جورج. يتناسب اجتماعيّاً وعمرياً معك. لقد اتّفقت مع زوجي على أن نخرج أربعتنا للعشاء. ما رأيك؟

– لكن...

– مريام، أرجوكِ. حياتنا تحتاج منّا أن نعطيها فرصاً ثانية وثالثة. وتابعت مازحة: «مريام، أنتِ ما زلتِ جميلة ومرغوبة. هل تتذكّرين ماذا كنتِ تُردّدين لي؟ كنتِ تقبضين بيديكِ الاثنتين على نهديكِ، وتقولين لي مازحة... هذان اللذان أوقعا مايكل في حبائلي. لا تقلقي، ما زال نهداكِ مشدودين، قادرين على إغواء أيّ رجل». ابتسمتُ، وأكملت احتساء كوبي.

لم أهتمّ ليلتها باختيار الثوب الذي سأرتديه. فتحتُ درفتي خزانتي على مصراعيهما. سحبتُ أول رداء وقعت عليه عيناي. كان ثوباً من الشيفون الأحمر اللون، مرسوم ثلاثة خطوط سوداء حول الذيل، وحول الرقبة. طوله يُغطّي ربلتي ساقيَّ. لاحظت نظرات الإعجاب في عينيْ جورج لحظة دخولي المطعم. كانت ملامحه لا بأس بها من ناحية الشكل. في أوائل عقده الخامس. أخذنا أربعتنا نتبادل حديثاً اعتياديّاً. كانت موسيقى كلاسيكيّة تصدح في أرجاء المكان. سألني إن كانت لي رغبة في الرقص! أومأت بالإيجاب. أحاط ظهري بذراعه. قال باسماً: «عطرك مميّز. أوّل شيء يلفت انتباهي في المرأة نوعيّة عطرها. يدلّ على تميّز شخصيتها، وأنّها امرأة لا تقبل بأنصاف الحلول». ابتسمت. سألني وهو يمدّ يده لمصافحتي بنهاية السهرة: «هل من الممكن أن نلتقي مرّة ثانية؟». نقّلتُ بصري بينه وبين سوزان. أجابت سوزان بالنيابة عنّي: «بالتأكيد جورج». دوّن رقم هاتفي في هاتفه النقّال. دوّنتُ أنا بدوري رقمه. قال وهو يبتعد ليستقلَّ سيّارته: «سأهاتفك قريباً».

صبيحة اليوم التالي، سألتني سوزان بنبرة فضول:

– ما رأيك في جورج؟ هل راقكِ؟

سحبتُ سيجارة من علبة سجائري. أشعلتُها. سحبتُ منها نفساً طويلاً. نفختُ دخان السيجارة في فضاء المكان، وقلتُ:

– لا أعرف! فكري مشوّش. لم أستطع تكوين رأي كافٍ عنه! ألم تُلاحظي أنّ عينيه كانتا تلتهمانني أمس.

ضحكت سوزان، مُعلقة:

– عزيزتي، كلّ الرجال يتساوون في أهدافهم، كما نحن النساء لا نختلف كثيراً في تطلّعاتنا. لا تعوّلي كثيراً على الحبّ. كلّ الذين أحبّوا خبا لهيب الحبّ في ما بينهم مع رتابة الأيّام، ومرور السنوات. انظري إلى علاقتي مع زوجي بيتر. هادئة، لا مشاكل كبيرة تُنغّص علينا حياتنا، لكنّ الوهج الذي صاحبنا في بداية زواجنا الذي قارب على العشرين سنة اختفى. أحياناً عندما أسمع كلمة إطراء من زميل لي في العمل، أحسّ برجفة في قلبي، وبالعرق يُبلّل إبطيَّ. لا أدري ما سرّ هذا الشبق! ربّما لأنّ بيتر توقّف عن إلقاء عبارات الإطراء على جمالي. ربّما لأنّني متعطشة لسماع هذا النوع من كلمات الغزل، لأشعر بأنّني ما زلتُ أنثى مرغوبة. حتّى الجنس أصبحنا نُمارسه كواجب زوجي في فترات متباعدة. في قرارة نفسي أعرف أنّ الحبّ الذي بيني وبين بيتر ما زال موجوداً وهو يُشعرني بالطمأنينة، لكنّه استكان، وخمدت أنفاسه، وتحوّل إلى ألفة واحتياج كلّ منّا للآخر، وأعتقد أنّ هذه النتيجة مُرضية لكلينا. هل نسيتِ ما فعله الحبّ معك! لقد جرّبتِ الحبّ مرّة وخرجتِ منه مهزومة، مُحطّمة الفؤاد، لكنّ علاقتك مع مايكل نجحت لأنّك في الأساس كنتِ بحاجة إليه، والاحتياج برأيي أقوى من الحبّ. الرحمة على روح مايكل الطاهرة. من يدري عزيزتي؟ ربّما احتياجك إلى جورج قد يدفعك للالتصاق به، وإيجاد السعادة معه.

5

اتّصل بي جورج على هاتفي بعد لقائنا الأول بيومين. بدأنا نخرج. كان يدعوني إلى مطاعم متوسّطة المستوى. قارنتُ بداخلي بينه وبين مايكل، كعادتي عندما أتعرّف إلى أيّ رجل. أتذكّر منذ اللحظة الأولى التي خرجتُ فيها مع مايكل، كان يأخذني إلى أفخم المطاعم في بوسطن. ظلّ مايكل على طريقته حتّى بعد انتقالنا إلى بوكاراتون.

عرض عليَّ جورج الزواج بعد بدء علاقتنا بأسابيع قليلة. طلبتُ منه مهلة للتفكير. أفصحتُ له عن رغبتي في أن يتقرّب من جاسمين. أن يُحاول كسب حبّها. لاحظتُ أنّه يُطيل النظر إليها. يُحدّق في جسدها الغضّ باشتهاء. طردتُ هواجسي. أقنعتُ نفسي بأنّها تهيّؤات نابعة من خوفي الزائد عليها. كنتُ على وشك إبلاغ جورج بموافقتي على الارتباط به، حين جاءت جاسمين إلى غرفتي. قالت لي بنبرة جزعة: «أمّي، لقد وضع جورج يده على فخذي. طلبت منه أن يرفعها. كرّر فعلته مرّتين. أمّي، أنا لا أحبُّ جورج». كانت هذه العبارة كافية لأن أُخرج هذا الرجل من حياتي إلى الأبد. قلتُ لسوزان: «لن أدع رجلاً يمسّ ابنتي بسوء، ويُسبّب عقدة لها، ويُفسد عليها حياتها».

كانت رغبتي الجنسيّة قد بدأت تضعف، رغم أنّني كنتُ في نهاية الثلاثينات. لم تعد تلحُّ عليَّ كالسابق! لم يعد الرجال يلفتون نظري، ويستهوونني كسابق عهدي، أو تُثيرني ذكورتهم. بدأ هذا التغيير مع حدوث اضطراب في دورتي الشهريّة. نقلتُ لسوزان ما أشعر به. رفعت سوزان حاجبيها تعجّباً من حالي. علّقت قائلة: «ما زلتِ في أوج أنوثتكِ مريام. هناك شيء غير مفهوم يجري! يجب عليكِ مراجعة طبيبك. عزيزتي هناك نساء تجاوزن السبعين وانقطع عنهنَّ الطمث ورغم هذا ما زلنَ راغبات بشدّة في تكوين علاقات حميمة».

قال لي طبيبي: «أنا مندهش! لديك بوادر لانقطاع الدورة الشهرية، يبدو أنّ هذا الأمر مرتبط بعامل وراثي. هل حدث هذا الشيء مع والدتك؟ هل انقطعت عنها العادة الشهريّة مُبكراً؟». الحقيقة لم أكن أنا نفسي أعرف الإجابة عن هذا السؤال. تابع طبيبي حديثه: «لا تقلقي، سأصف لك دواء هرمون، يُساعد على انتظام الدورة لديك». رفضتُ أخذ أيّ نوع من الهرمونات. قلتُ لطبيبي: «أريد أن أتقبّل كلّ مرحلة من مراحل حياتي، برحابة صدر. لن أخدع نفسي كما تفعل أغلبية النساء. لن أدع عجلة الزمن تُنهكني، وتتغلّب عليَّ، وتسلبني إرادتي العفيّة. أنا متأهّبة للعراك معها حتّى آخر قطرة من دمي».

صارت العادة الشهرية تزورني كلّ شهرين، ثمّ أخذت تتباعد لتُصبح كلّ ثلاثة أشهر، ثمّ صارت تزورني كلّ أربعة أشهر. عندما وصلتُ إلى عمر الأربعين كانت قد انقطعت تماماً عن زيارتي. جعلتُ جاسمين محور تفكيري. أتباهى علناً بجمالها، وبأنّ لديَّ ابنة تُدير رؤوس الرجال.

نبت فجأة بداخلي شعور غريب لم أألفه من قبل! أضحيتُ أقرف من الحياة. حاولت بكلّ ما أوتيتُ من قوّة وصلابة أن أقاومه. لا أعرف لماذا تركتُ اليأس يُسيطر على حياتي؟ لماذا سلّمت له نفسي طواعية؟ الجميع كانوا يشهدون بتفاؤلي الدائم. ألم أُحقّق ما أردته؟ لقد انتقمتُ من الرجل الذي داس على مشاعري، بحرمانه من ابنته. تزوّجتُ برجل ناجح، كنتُ بالنسبة له كلّ شيء. منحني الله ابنة فائقة الجمال، تحلم كلّ أمّ بأن يرزقها الله فتاة مثلها. لماذا لم أعد أشعر بالسعادة؟ لماذا أصبحت المسافة شاسعة بيني وبين الفرحة؟ أتذكّر أنّني دخلتُ مرّة على مايكل في غرفة مكتبه. كان مشغولاً بمراجعة أوراق قضيّة ما. سألته «هل أنتَ سعيد معي؟». ابتسم ابتسامة واسعة، قائلاً: «متى ستكفّين عن ترديد هذا السؤال؟ منذ تزوّجتك لم ينقص حبّي لك شبراً واحداً، بل زاد أضعافاً مُضاعفة». علّقت قائلة: «أنا أعرف أنّك تُحبّني، ولكنّك لم تجبني عن سؤالي!». ابتسم. مدَّ ذراعه. أمسك بكتاب كان موضوعاً على سطح مكتبه. رميت نظري بفضول صوب غلافه. كان يحمل عنوان «الحكيم بوذا» تأليف كلّ من «كزافييه كورنيت – دوسان سير». الكتاب يتحدّث عن بوذا الذي تتبع ديانته شريحة كبيرة من الهنود. فتح على صفحة مطويّة. بدأ يقرأ بصوت واضح: «إنّ السعادة لحظة زئبقيّة، متقلّبة، تُولد، تنمو، تختفي، تعود، ثمّ لا ندري أين كانت ولا إلى أين ذهبت! حين نبحث عنها في كلّ

مكان، ونُفتّش جيوبنا وأذهاننا، ونسأل الشجر والحجر والماء عنها فلا مُجيب. حين ننظر في ثقوب الجدران والحصى، ونقرأ الكتب والمجلدات، ونعصر أذهاننا دون جدوى تُصبح الحياة سامّة، وعلّة في النفس. هي في النهاية لحظة وعي لحياة تتسرّب من بين أصابعنا كالرمال». عدتُ لسؤاله: «هل تعني أنّ إحساسي بالسعادة معك، من الممكن أن ينتهي؟». قام من مكانه. ضمّني إلى صدره، قائلاً: «الحياة يا حبيبتي لا تستمرّ على وتيرة واحدة. المهمّ أنّنا معاً الآن. لا تُفسدي واقعنا الجميل بدسّ طعم الخوف فيه. لندع المستقبل يهلُّ علينا من أيّ صوب، وإن كان يحمل في جعبته مفاجآت سارّة أو مُحزنة! المهمّ أن تظلّ أيدينا متشابكة».

أحياناً أندهش من ضميري. يستيقظ فجأة من سباته. يلسع جدران وجداني. أتساءل... هل كنتُ أنانية حين حرمتُ جاسمين من أبيها الحقيقي! هل جعلتُ الحقد يُسيطر على حياتي؟ هل فشلتُ في التحرّر منه؟ في كتاب «الحكيم بوذا» الذي شجّعني مايكل على قراءته من أوّله إلى آخره، كانت هناك قصّة استوقفتني. تدور بين شيخ عجوز وحفيده. الجدّ ينصح حفيده قائلاً: «عليك أن تعلم يا بنيّ، أنّ بداخل كلّ منَّا معركة تدور منذ الأزل بين نمرين! أحد النمرين يُمثّل الشرّ بعينه، والنمر الآخر يتجلّى فيه الخير». يسأله حفيده: «أيُّ النمرين سيكون الغالب في النهاية؟». يُجيبه الجدّ: «ذاك الذي نُغذّيه، ونعتني به أكثر». لا أدري إن كانت هذه القصّة مُشابهة لقصّة حياتي! هل غذّيتُ الخير أم الشرّ في أعماقي؟ هل تركتُ أحقادي تنبتُ في أعماقي كلّ هذه السنوات؟ لقد عوّضت ابنتي بأب رائع اعتبرها بالفعل ابنته. لم أكن أحلم لها بأب مثل مايكل في نبله وعطائه وثقافته الواسعة، وقدرته على حلّ أعقد الأمور. الدنيا لا تعطينا فرصاً كثيرة، وقد كانت سخيّة معي حين وضعته في طريقي. لماذا لا أكفّ عن استحضار الماضي؟ يقولون بأنّ الذي يستحضر ماضيه كثيراً، ويمرّ أمامه شريط حياته بكافة تفاصيله، معناه أنّ أجله قد حان. ليت ما أحسُّ به صحيح، وملك الموت يحوم حولي. هذا يعني أنّ الله يحبّني، لأنّني سألتقي بمايكل، حبّ عمري، قريباً.

في الآونة الأخيرة، جاءتني يسرا مرّتين أثناء نومي. لم تكن تزورني كثيراً في أحلامي. المرّة الأولى كانت ببيتنا في جدّة. كنتُ أنا ويسرا وعواطف. ثلاثتنا جالسات في الصالة. ملتهيات بتناول ساندوتشات الجبنة البيضاء المخلوطة

بقطع الطماطم والخيار، التي كانت تصنعها لنا أمّي بيديها. أعيننا مُنصبّة على شاشة التلفاز. أدرتُ وجهي فجأة فلم أجدهما. اختفت يسرا وعواطف من المكان. أخذتُ أصرخ وأناديهما. قمتُ فزعة والعرق يتصبّب من أرجاء جسدي، والدموع تُبلّل وجهي. المرّة الثانية كانت عند كورنيش جدّة. كنّا نجري معاً على الرصيف، وفجأة تسقط يسرا على وجهها. أراها تئنّ من أثر الوقعة. أمدُّ لها ذراعي لأساعدها على النهوض. ترمقني بنظرة عتاب. تختفي من أمامي. أناديها بأعلى صوتي، ثمّ أستيقظ وأنا أردّد اسمها.

هناك عبارات جميلة من كتاب «الحكيم بوذا» ألفيتها متلائمة مع وقائع حياتي، حفظتها عن ظهر قلب: «ننظر إلى الحياة فنراها جميلة ورائعة، وإلى هذا الجمال والروعة نجد أنفسنا مشدودين بوثاق التعلُّق: هي حياتنا وحياة الآخرين... إنّ الحياة معجزة هشّة، يُمكن أن تتوقف في كلّ لحظة... لا يُوجد ما يمنع تمجيد الحياة، وعيشها بكلّ رغبة وأمل».

تُرى، هل كنتُ أكذب على طبيبي، عندما قلتُ إنّني أُجيد التأقلم مع ضعف الشيخوخة؟ أعلم بأنّ جميع البشر لا بدّ أن يمرّوا بهذه المرحلة العصيبة، لكن لماذا غدا داخلي يرفضها بشدّة؟ هل لأنَّ الشيخوخة تعني الانحسار من ضوضاء الدنيا، والانحدار إلى نقطة العدم؟ هل لأنّني كنتُ طوال عمري أعيش في سباق مع الزمن، أتحدّاه حيناً، أستسلم له حيناً آخر، وأبارزه بكلّ ما أملك من أسلحة أحياناً ثالثة؟ لقد تعبت من النزال مع الحياة.

6

طوت جاسمين دفّتَي المفكّرة. أعادتها إلى مكانها داخل خزانة والدتها. كانت تلك السطور آخر كلمات كتبتها أمّها. كأنّ ملك الموت كان يقضي مهمّته في مكان آخر، وأرسل لها تابعاً من عنده، ليحثّها على تسطير عبارات وداعها قبل أن تذهب إلى الرفيق الأعلى. شردت جاسمين بفكرها. أخذت تُخاطب نفسها «في كلّ الحالات، أمّي ماتت وانتهت قصّتها. ما سطّرته أمّي يعني أنّها كانت مسلمة الديانة قبل أن تتحوّل إلى الدين المسيحيّ. عرفتُ الآن لماذا كانت تبكي بحرقة عندما وقعت أحداث الحادي عشر من سبتمبر. كنتُ صغيرة، لكنّ هذه الأحداث المؤلمة هزّت حينها المجتمع الأميركي، وقلبته رأساً على عقب. تحضرني هيئتها الآن، وهي تُتابع بشغف تطوّرات الأحداث على التلفاز، وعيناها لا تحيدان عن شاشته».

نامت جاسمين تلك الليلة نوماً متقطعاً. زارتها أمّها في المنام. كان وجهها مثقلاً بالهموم. تلبس رداءً أسود فضفاضاً. تمدّ لها ذراعيها. تُحاول أن تأخذها في حضنها، لكنّ جاسمين تدفعها وتسير بعيداً عنها. تصرخ أمّها بأعلى صوتها منادية عليها، متوسّلة إليها أن لا تتركها بمفردها. لا تأبه جاسمين بتوسّلاتها. تُكمل طريقها.

استيقظت جاسمين قُرب الثانية عشرة ظُهراً. أحسّت بخدر في جسمها. لم تعتد الاستيقاظ متأخّرة. نظرت إلى صفحة وجهها في المرآة. بدا منهكاً، شاحباً، كأنّها مُصابة بوعكة صحيّة. دلفت إلى الحمّام. أخذت حمّاماً دافئاً. نزلت إلى الدور الأرضي. صنعت لنفسها فنجان قهوة مخلوطاً بقليل من الحليب. كانت قد وضعت هاتفها النقّال على الصامت. لاحظت أنّ ستيف اتّصل بها مرّات عدّة. صعدت إلى غرفتها. جلست أمام شاشة الكمبيوتر. استخدمت

مؤشّر غوغل. أخذت تتنقّل بين المواقع. بدأت تقرأ عن كمّ حوادث الإرهاب التي وقعت في العديد من الدول العربيّة والإسلاميّة. تُلاحق بعينيها مختلف الحوارات المكتوبة باللغة الإنجليزية بين فتيان وفتيات عرب ومسلمين، ومواقفهم ممّا يجري في بلادهم من قمع وكبت للحرّيات، وحوادث عنف. اندهشت من تباين آراء الشباب ممّن هم في مثل عمرها. هناك من تبنّوا آراءً متطرّفة، ويتمنّون أن يُباد الغرب بأكمله، لكونه المحرّك الفعلي لما حدث بالأمس وما يجري اليوم في أوطانهم، معتقدين أنّ الدول المتورّطة والملطّخة أياديها بالاستعمار، قد تخلّت عن أساليبها القديمة التي استخدمتها في الماضي، وسنّت نهجاً جديداً وخبيثاً لنهب خيرات بلدان الشرق الأوسط. قرأت كذلك أنّ هناك من ألقى اللوم على أميركا، معتبراً أنّها مصدر كلّ الشرور التي تجري في العالم. وجدت أيضاً شباباً من الجنسين يُدافعون عن المجتمعات الغربيّة، ويتغنّون بالحرّيات الموجودة هناك، ويدعون إلى التسامح، ونبذ العنصرية العرقية والدينيّة التي اكتوت بلادهم بها. تعبت جاسمين من التحديق في شاشة الكمبيوتر. لاحظت أنّها قضت خمس ساعات أمام الشاشة دون أن تشعر بمرور الوقت. أقفلت الجهاز. ارتدت منامتها. لم تشعر بالرغبة في تناول العشاء. اكتفت بالتهام كيس من البطاطا المقرمشة وراحت بعدها في النوم.

استيقظت صباح اليوم التالي عند التاسعة، في نفس توقيتها المعتاد. شعرت بهمّة ونشاط. كانت صبيحة يوم سبت. تذكّرت أنّها وعدت سوزان بتناول طعام الغداء في منزلها مع أسرتها. ارتدت الملابس المعلقة على المشجب. كانت نفسها التي ارتدتها يوم خروجها مع ستيف. كانت متردّدة في مكاشفة سوزان بأمر المفكّرة. استشفّت جاسمين من السطور المكتوبة أنّ سوزان كانت على دراية كاملة بماضي والدتها. استقرَّ رأيها في النهاية على مفاتحتها. قادت سيّارتها إلى بيت سوزان. كان دخان الشواء ينبعث من الحديقة حيث وُزِّع عدد من الطاولات تحلّقت حولها صديقات سوزان. كانت جاسمين تعرف بعضهنَّ. رحّبت بها سوزان، ولوّح لها زوجها المشغول بشيّ اللحم. أحضرت لها سوزان طبقاً يحتوي على ساندوتش من الخبز المدوّر، محشوّ داخله بالهمبرغر المشويّ، وبجانبه بعض البطاطا المقليّة. أخذت تتأمّلها بحنوّ. ضغطت على يدها، قائلة لها:

– حضورك أسعدني. فيك كثيراً من والدتك يا جاسمين.

ابتسمت جاسمين في وجهها. قضمت قطعة من الساندوتش.

قالت لها بنبرة خافتة:

– سوزان، هل من الممكن أن نتحدّث على انفراد؟

– بالطبع عزيزتي. انتظري إلى أن يذهب الجميع لنتحدّث براحتنا.

ودّعت سوزان آخر ضيوفها عند الخامسة. أخذت جاسمين إلى الداخل، قائلة:

– بإمكانك التحدّث بحريّة هنا. لن يُقاطعنا أحد. أخبريني جاسمين! ما سبب هذه الحيرة التي تنبثق من عينيك؟

صمتت جاسمين هنيهة، ثم سألتها:

– كنتِ تعلمين بأمر المفكّرة، أليس كذلك؟

أرخت سوزان أهدابها. سرحت لوهلة، ثمّ قالت:

– جاسمين، أنا ووالدتك لم نكن نخفي أيّ أسرار عن بعضنا. أمّكِ كانت زوجة وفيّة، وأمّاً رائعة، وكنتِ محور حياتها. لا أريدكِ أن تلوميها على أيّ تصرّف قامت به. كلّه كان من أجلك. الخوف يا عزيزتي يجعلنا نرتكب هفوات لاإراديّة. أمّك كان الخوف مُسيطراً عليها، من أن يسلبها أحد ابنتها الوحيدة. عليك أن تفهمي أنّنا أحياناً نُجبر على السير في طرقات لم نُخطّط لها، من أجل أن نحمي أحبّاءنا. مهما كانت الصدمة كبيرة عليك، يجب أن تضعي نصب عينيكِ أنّها أمّك، التي فعلت الكثير من أجلك.

– وهل هذا الخوف يُعطيها الحق في حرمان أب من ابنته؟ لقد سلختني من جذوري. أنا مشوّشة التفكير! لا أعرف من أنا! أجهل كلّ شيء عن أصلي.

ربّتت سوزان يدها معلّقة:

– انسي أمر المفكّرة. عيشي حياتك بالطريقة التي ترينها ملائمة لكِ. الأب والأم مجرّد اسمين في شهادة الميلاد. أنتِ من تصنعين قدرك، ولا أحد سواكِ. هناك أناس وُلدوا وهم يجهلون أسماء آبائهم وأمّهاتهم، ولا يعرفون من أين أتوا، وإلى أيّ أسرة ينتمون، ورغم هذا شقّوا طريقهم ونجحوا في بناء مستقبلهم. ضعي نصب عينيكِ أنّ الرجل الذي منحك اسمه، أحبّك كابنة له، ورعاكِ في صغرك، ومنحِك الحنان، ووفّر لك الأمان. هو من شاركك ذكرياتك، وشاطركِ أفراحكِ. أنتِ فتاة محظوظة يا جاسمين، لأنّكِ طوال عمرك كنتِ مُحاطة بالحبّ الحقيقي.

انفجرت جاسمين في البكاء. رمتها سوزان بنظرات حانية. ربّتت يدها. شعرت جاسمين في تلك اللحظة بحنين جارف إلى حضن أمّها. أبدت رغبتها في الانصراف. ودّعتها سوزان عند باب منزلها. أحسّت جاسمين لحظتها بحاجتها إلى الاختلاء بنفسها. ركبت سيّارتها. اتّجهت صوب منارة «هيلزبورو». كانت الساعة تُشير إلى السابعة مساءً. أوقفت سيّارتها. أخذت تتسكّع حولها. بدأت تُلاحق بعينيها أضواء المصابيح المتلألئة المحيطة بالمكان وتُمتّع ناظريها بمشهد الأشجار العالية التي كانت تترنّح يميناً وشمالاً، كأنّها تُريد بصوت حفيفها إدخال السرور إلى قلب جاسمين. تسرّب إليها الارتياح. قفلت عائدة إلى البيت.

فور دخولها، اتّجهت صوب مكتب والدها. حرصت أمّها على أن لا تُفرّط في أيّ شيء يخصّه، بما فيها مكتبته العامرة. كان أبوها واسع الاطّلاع، ولديه مراجع كثيرة في مجال تخصّصه، بجانب كتب متنوّعة كثيرة. أخذت جاسمين تبحث عن كتاب «بوذا» الذي تحدّثت عنه والدتها في مذكّراتها. بعد ساعة من البحث، عثرت عليه. كان كتاباً متوسّط الحجم. أمسكت به فرحة. تمدّدت على الأريكة في غرفة الجلوس. أخذت تقرأه بنهم. لم تتركه إلى أن أنهت قراءته. أخرجت زفيراً طويلاً. فهمت لحظتها لمَ أعطى أبوها لوالدتها هذا الكتاب تحديداً لتقرأه. كان يعلم بأنّ الخوف ظلَّ يُلازمها طوال حياتها، ولم يُفارقها أبداً. حاول أبوها بذكائه وفطنته التخفيف عنها، وإزاحة هذا الكابوس الجاثم في أعماقها. أحبّت جاسمين هي الأخرى مضمون الكتاب. أعادت قراءته مرّات عدّة. دفعها إلى التفكير جدّياً في اعتناق البوذيّة مستقبلاً. أسرتها تعاليمه الروحانيّة. استوقفتها عبارات منه: «تعيش الحشرة لحظة عابرة لا تتجاوز اليوم أو اليومين، فيما بعض الأشجار كالسنديانة مثلاً يُمكن أن تصمد بوجه الموت خمسمئة عام وأكثر، ولكنّها جميعاً تنتهي إلى الاستسلام للسيّد المهيب (الموت). يتفاقم الألم عندما نرفضه، ذلك لأنّه موجود بالفعل، ومقاومته تخلق توتّراً يزيد من حدّته حتّى يُصبح ألماً لا يُطاق... كلّ شيء إلى التلاشي بما في ذلك نحن... ابتعدوا عن الغضب الذي يشتعل في نفوسكم. إنّ الغاضب كمن يُمسك جمرة بيده، يُريد أن يُلقيها على الآخر، بينما هو الذي يحترق بها».

عزمت جاسمين على أن تُواجه ألمها. أن لا تجعله يربض في أعماقها ويتحكّم بحياتها كما فعل الخوف بوالدتها. قرّرت مواجهته ببسالة إلى أن تجرفه

دواليب الأيّام. عزمت على تبديد الغضب الذي شعرت به تجاه والدتها، مُردّدة بينها وبين نفسها «يجب أن أصنع بدايتي. لن أبدأ أبداً من النقطة التي انتهت إليها أمّي».

ظلّت جاسمين شهراً تبحث عبر «غوغل»، عن كلّ ما يخصُّ قضايا الشرق الأوسط. وتقرأ بشغف ما تجده في مكتبة والدها، عن تواريخ الأديان. خرجت بأفكار ومعلومات لم تكن تعلمها عن الدين الإسلامي. أنّ الأديان الثلاثة، التي بدأت باليهوديّة ثمّ المسيحيّة وانتهت بالإسلام، كلّها أديان سماويّة نزلت من عند الله. «إذن، لمَ قامت كلّ هذه الحروب على مدار التاريخ، باسم الدفاع عن الدين؟ لماذا يتورّط البشر في زرع الشرور، وتوريث الضغائن؟ لمَ الناس يُحاسب بعضهم بعضاً على عقائدهم الدينيّة، وربّ السماء هو صانع الأديان الثلاثة؟ تُرى، هل أمّي بلغت حدّاً عالياً من التسامح الديني، وكانت متصالحة مع نفسها، إلى الحدّ الذي دفعها لاختيار الدين الذي وجدت فيه نفسها؟ صعب أن أبني تكهّناتي على قرار اتّخذته أمّي، لأنّي لن أعرف يوماً دوافعها وظروفها! لا أعتقد بأنّ من شأن أحد، إن كنتُ مسيحيّة أو يهوديّة أو مسلمة أو مُعتنقة لأيّ ديانة أخرى، أو حتّى مُلحدة؟ ديانتي، في نهاية الأمر، تخصّني وحدي». أقفلت جاسمين باب الحوار مع نفسها. عادت وأطلقت العنان لخيالها. تمنّت لو استطاعت الإبحار عبر المحيطات. أن تلتقِي صدفة بوالدها الحقيقي. لا تدري حينها ماذا ستقول له! ليست هناك ذكريات تجمعهما، ولا تفاصيل يتشاركان فيها، وكان هذا أصعب ما في الأمر! كانت مُدركة أنّ أثمن ما يربط الإنسان بالأشخاص الذين يحبّهم أو الذين هو على علاقة وثيقة بهم، هو كمّ المشاهد الجميلة التي تجمعه معهم. تُرى هل كانت ستُعاتبه لأنّه لم يُحارب من أجلها؟ هل كانت ستلومه لكونه لم يفعل المستحيل من أجل العثور عليها؟ هزّت رأسها نفياً، قائلة لنفسها «لا أريد أن أظلمه، ربّما حاول وفشل. ليتني كنتُ أُنجّم الغيب، وأرى الطالع، كي أكشف المستور. من يدري؟ ربّما يجلس رجل غريب صدفة بجواري، على متن طائرة أو قطار، نقطع أنا وإيّاه ملل الرحلة بتبادل الأحاديث التافهة، لأكتشف في الدقائق الأخيرة من هبوطنا، أنّه والدي الذي حرمتني منه أمّي. ربّما تكون خاتمة قصّتي عجيبة! ويُقرّر أبي الحقيقي كتابة رسالة لي، مُذيّلة بتوقيعه، يحكي فيها بالتفصيل قصّته مع أمّي من وجهة نظره، ثمّ يحشرها داخل زجاجة، ويسدُّ فتحتها بالفلّين، ويقذفها في أعماق

البحر، فتقودها الصدفة إليَّ، وتصطدم قدماي بها وأنا أسير على رمال الشاطئ. قصّة مُشابهة للقصص الخياليّة التي كان أبي مايكل يقرأها لي في طفولتي. أنا واثقة بأنّ الحياة تزخر بحكايات تفوق ما سطّرته الأساطير».

ليس مُهمّاً البدايات مهما كانت قاسية! الوقوف في منتصف الطريق، والنظر إلى الخلف بهلع، واستحضار الذكريات المؤلمة، ستجعلنا ندور حولها، متوجّسين من رسم خطط واضحة لمستقبلنا.

كان الربيع قد بدأ يتبختر سعيداً في الطرقات. رجعت أغصان الأشجار تكتسي بالأوراق الخضراء. كانت بصمات الربيع واضحة في كلّ الأمكنة. عادت أصُص الأزهار الزاهية تُزيّن شرفات المنازل. كلّ شيء كان يبعث على البهجة والتفاؤل. كثّفت جاسمين جهدها في دراستها. كانت تسعى للحصول على درجات عالية. استقرَّ رأيها بعد طول تفكير على تقديم أوراقها لجامعة كولومبيا. مرّت الأيّام بسرعة البرق. نسيت أمر المفكّرة. انصبَّ اهتمامها على هدفها. نجحت بتفوّق في مرحلتها الثانوية. كان اسمها ضمن الأسماء المدرجة في لائحة الشرف. حرصت كلّ من سوزان وإميليا والسيد وليم توماس، إضافة إلى صديقها ستيف، على حضور حفل تخرّجها. قالت لها سوزان بتأثّر: «ليت والدتك موجودة معنا اليوم. أنا واثقة بأنّها كانت ستفخر بك». شكرت كلّاً من سوزان وإيميليا والسيد وليم وستيف على حضورهم، وما قاموا به من أجلها. زهوة النجاح كانت تملأ أعماقها. أضفت لمعة فرح في حدقتي عينيها. سألها ستيف:

– أيَّ تخصّص ستختارين؟

– لقد قرّرتُ دخول قسم الإعلام. أمنيتي أن أصبح صحافيّة ميدانيّة.

ابتسم مُعلّقاً:

– آخر قسم توقّعتُ أن تدخليه. هو تخصّص ممتع، لكنّه مُتعب ومحفوف بالأخطار. وهذا يعني أنّك ستنشغلين كثيراً.

أرخى رأسه، متابعاً كلامه بنبرة حزينة:

– هل سنظلُّ على تواصل؟ ستكون لك دنيا أخرى هناك.

– بالتأكيد ستيف. أنتَ صديقي الوفيّ، الذي لا غنى لي عنه. كما أنّني سأزوركم بين آن وآخر، كلما سنحت الظروف بذلك. ردّت عليه جاسمين بنبرة حانية.

أقامت سوزان لجاسمين حفلة في منزلها بمناسبة تخرّجها. دعت إليها عدداً من معارف والدتها، وعدداً من معلّماتها في المدرسة. ارتدت جاسمين ليلتها فستاناً من الساتان الزهري اللون، مسترسلاً إلى طرف قدميها، بكمّين قصيرين يصلان إلى ثنية إبطيها. على طرف إحدى الكتفين كانت هناك وردة كبيرة باللونين الأسود والزهري. حول خصرها حزام أسود، أظهر نحافته. انتعلت حذاءً ذهبياً لا يزيد طول كعبه عن خمسة إنشات. ارتدت جاسمين حول جيدها عقد أمّها ذا اللؤلؤ الأبيض. كانت والدتها تُحبّ ارتداء في المناسبات الخاصّة. شعرت جاسمين تلك الليلة بالبهجة، وبأنّها قد بدأت تستردُّ عافية روحها. قدّمت لها سوزان بمناسبة تخرّجها حقيبة يد صغيرة الحجم، باهظة الثمن، تحمل علامة «جورجيو أرماني»، ذات جلد أزرق سماوي. وقدّمت لها إميليا سواراً من الذهب الخالص، له قُفل على شكل قلب. قدّم لها السيد وليم، جهاز «آيباد»، قائلاً لها: «سيُساعدك كثيراً في محاضرات الجامعة».

فرحت جاسمين بهداياهم. أثنت على ذوقهم. شكرتهم من صميم قلبها. عادت إلى البيت حوالي الحادية عشرة. دخلت غرفة والدتها. خلعت عقد اللؤلؤ. قبّلته. أعادته إلى مكانه داخل العلبة الزجاجيّة، المطعّم سطحها بعدد من الأحجار الكريمة، والمُحدّدة زواياها بالفضّة. أخذت تُقلّب في حاجيات أمّها. لمحت من بينها سلسلة من الذهب، تتدلّى منها تعليقة على شكل باب صغير الحجم. فتحته. فوجئت بصورتها وهي طفلة صغيرة محشورة بداخله. انزلقت دمعتان على خدّيها. سرحت في علبة مجوهرات والدتها. حضرتها واقعة اقتناء أمّها لها. كان والدها قد ذهب في رحلة عمل قصيرة، إلى مدينة بومباي في الهند. أخبر أمّها بأنّه أشتراها لها من محلّ مشهور بالقطع النادرة. فرحت كثيراً بها. قالت لمايكل وهي تُقبّله على صدغه: «دوماً هداياك جميلة. سأضع فيها مجوهراتي التي اعتدتُ استعمالها». نظرت بعدها صوب جاسمين مباشرة، متابعة بنبرة فرحة: «ستكون لك بعد موتي بكلّ ما فيها».

غاصت جاسمين أكثر في بحور الماضي. أخذت تتذكّر مشاهد لوالدتها في سنواتها الأخيرة. كانت تحبّ أغنية شارل أزنافور Yesterday When I Was Young. تهوى سماعها بصوت المغنّية البريطانية Shirley Bassey.

كانت تُدندن كلماتها بصوت خافت «بالأمس حين كنتُ شابّة، كان طعم الحياة كقطرات المطر على لساني. كنتُ أُمازح الحياة كأنّها لعبة حمقاء..».

حين تصل إلى عبارة «الآن فقط أرى كيف ركضت الأعوام بعيداً»، كانت تتوقّف لحظتها عن إكمال الأغنية وتخنقها العبرات، وتلمح جاسمين دموعاً محبوسة في محجري عينيها. تسألها: «لماذا تبكين يا أمّي؟»، فتُجيبها بصوت يُغلفه الحزن: «كلمات هذه الأغنية تمسُّ شغاف قلبي».

نامت جاسمين ليلتها نوماً عميقاً. حلمت تلك الليلة بوالدتها. جاءتها مرتدية ثوباً بنفسجي اللون، وتضع حول عنقها عقدها اللؤلؤي. كانت تضحك ملء شدقيها. ضمّت جاسمين إلى صدرها، قبّلتها على وجنتيها. مسحت بيدها على شعرها، ثمّ أدارت لها ظهرها، واختفت من المكان. قامت جاسمين صبيحة اليوم التالي منتعشة الفؤاد. أدركت أنّ أمّها جاءتها لتُعبّر لها عن فرحتها بنجاحها، وعن مُباركتها لخطواتها القادمة.

كان هدف جاسمين الحقيقي من دخول مجال الإعلام الوصول إلى المناطق الملتهبة في العالم، وخاصّة منطقة أفريقيا السوداء، ومنطقة الشرق الأوسط. كانت تُريد أن تشاهد بأمِّ عينيها ما يجري هناك. بداخلها شغف لمعرفة الحقيقة. قرّرت أن تلتحم بأرض الواقع، وتنقل إلى الناس ما يحدث من فظائع، وتُصحّح للناس ما يُبثّ من زيف. من يدري؟ تعلّمت طوال الأشهر الماضية أنّ وسائل التواصل الاجتماعي، ووسائل الإعلام المختلفة، أسلحة ذات حدّين، قادرة على تشويه سمعة شعوب، كما هي قادرة على تلميع صفحات شعوب أخرى. كانت ترغب بشدّة في أن تُوضّح كلّ الأمور المتوارية، بالصوت والصورة، وإن عرّضها هذا الأمر للأخطار. قرأت أنّ هناك صحافيين دفعوا حياتهم ثمناً لكشفهم زيف سياسيين، ومصالح دول، لكنّها في داخلها عزمت أن تكون شجاعة. مع كلّ هذه الحماسة، كانت متخوّفة بعض الشيء من عجلة الزمن! لكونها ستهدر شبابها سعياً وراء الحقيقة، وقد تخذلها الأيّام وتدفع أثماناً باهظة، أكبر من قدرة احتمالها!

حضر بفكرها حوار دار بينها وبين صوفي أثناء وجودها في روما. كانت كلّ منهما مستلقية على أريكة في غرفة الجلوس، بعد يوم حافل من التسكّع في أرجاء روما. سألتها صوفي:

– ماذا عن الحبّ يا جاسمين؟ ألا تشتاقين للمسة رجل، وقبلة ساخنة على شفتيك؟ ألا تتمنّين أن تلتقي قريباً بفارس أحلامك؟

– من منّا يا صوفي لا يتمنّى أن يجد حبّ حياته!

كانت صوفي غير مُصدّقة أنّ صديقتها لم تزل عذراء! قالت لها بصيغة شك:

– لا أستطيع أن أتخيّل كيف ستحتفلين بعيد ميلادك الثامن عشر، ولم تمرّي بتجربة كاملة مع أيّ شابّ؟

سرحت جاسمين في أسئلة صوفي. لم تكن تدري صوفي، أنّ أمّها كانت تُحاصرها بشدّة. أنّها لم تكن تسمح لأحد بالاقتراب منها. أنّها كانت تحسب عليها أوقات خروجها ودخولها. أنّها كانت تلمح الخوف دوماً ينبثق من عينَي والدتها، كلما لاحظت نظرة إعجاب من شابّ تجاهها. كان هذا الخوف يخنقها، يدفعها بعض الأحيان إلى الثورة في وجه والدتها. خجلت لحظتها من أن تعترف لصديقتها بأنّ أمّها كانت تتجسّس عليها. أنّها كانت تدخل على إيميلها وتقرأ مراسلاتها. أنّها كانت تتلصّص على صفحتها في الفايسبوك، لتعرف قائمة أصدقائها. أنّها كانت تستعين بأحد الشباب الماهرين في شبكة الإنترنت، لتفتح إيميلها وتدخل على صفحتها في الفايسبوك كلما غيّرت كلمة السرّ. كانت هذه الأمور تُثير حفيظتها. واجهتها مرّة بأنّها على علم بما تقوم به في غيابها! أنكرت أمّها جملة الاتّهامات. قالت لها بنبرة تحدٍّ: « ولماذا أفعل ذلك؟ أنا واثقة بأنّك لا تخفين عنّي أيّ تفاصيل عن حياتك».

تنبّهت لحظتها على يد صوفي تهزّها، تُعيدها إلى أرض الواقع. ابتسمت، وعلّقت على كلام صديقتها قائلة:

– دوماً كانت أمّي تُردّد أمامي أنّ الحبّ سيأتي. أنا واثقة بأنّني سأقع يوماً في الحبّ. وسألتقي بفارس أحلامي عاجلاً أو آجلاً. ربّما هنا في روما، أو غداً، أو بعد غد في أيّ بقعة من العالم. لحظتها لن أقفل الباب في وجهه، سأرحّب به. وسيكون حبّي الأول والأخير.

أجابتها صوفي بنبرة تهكّم:

– كيف ستعرفين يا جاسمين، وأنتِ معدومة من التجارب العاطفيّة! الخبرة تجعلنا أكثر قدرة على تمييز من نُصادفه. لا أحبّذ فكرة الارتماء في أحضان رجل من الوهلة الأولى، لمجرّد أنّني انجذبت إليه! ربّما كان الطرف الآخر انتهازيّاً، وهدفه إرواء رغبته منّي، ثمّ يختفي دون أن يترك أثراً، ويُخلّف جرحاً دامياً في قلبي! أو ربّما تكون مشاعري تجاهه وقتيّة، وأنا متوهّمة بأنّه حبّ العمر، ثمّ تتبدّل عواطفي، وأندم على اختياري بعد فوات الأوان! أنا يا عزيزتي بطبعي فتاة مُغامرة، أؤمن بأنّ علينا المجازفة في مرحلة شبابنا. نصيحتي لك،

لا تقفزي فوق مراحل عمرك. فترة الهدوء في حياتنا، ستأتي وسنتقبّلها رغماً عنّا، عندما يذبل رونق الشباب، ونلج إلى خريف العمر.

ردّت جاسمين عليها بنبرة هادئة:

– أتعرفين ماذا يقول الفيلسوف العظيم كونفوشيوس... «الإنسان الذي يُريد أن يُغيّر موضع الجبل، عليه أن يبدأ بحجرة واحدة» وأنا مؤمنة بمضمون هذه العبارة. لن أدعَ أيّ عراقيل تُوقفني.

انشغلت جاسمين بتحضير لوازم سفرها. كانت قد بقيت أيام قليلة على انتقالها إلى مدينة نيويورك. عرض عليها السيد وليم مساعدتها في استئجار شقة صغيرة في حيّ مانهاتن بالقرب من جامعتها. فضّلت جاسمين العيش في سكن الجامعة طوال فترة دراستها. كانت بداخلها تبحث عن رفقة وزمالة افتقدتها طوال حياتها. اتّفقت مع ستيف على أن يمرّ عليها. ذهبا إلى ميامي. أهدرا الوقت كعادتهما في التسكّع بطريق لنكولن. بعدها تناولا طعام العشاء في أحد مطاعم الهمبرغر. حاول ستيف أن يكون طبيعيّاً. كانت صفحة وجهه تعكس دواخله الحزينة. أخرج فجأة من جيبه علبة صغيرة. قدّمها لجاسمين قائلاً:

– هديّة صغيرة لتتذكّريني بها.

فتحتها جاسمين. كانت عبارة عن قلادة من الفضّة تحمل أوّل حرف من اسمها « J». عبّرت جاسمين عن إعجابها بذوقه. شكرته، قائلة:

– بها وبدونها، لن أنساك.

كانت جاسمين قد أنهت تجهيز حقائبها. حجزت سيّارة أجرة كي تقلّها إلى المطار صبيحة اليوم التالي. كانت المفكّرة لم تزل مستلقية على رفّ من رفوف خزانة والدتها. أخرجتها جاسمين من سباتها. قرّرت لحظتها أن تدفن سرّ أمّها معها إلى الأبد في قبرها. أن لا تُخبر أحداً بقصّة والدتها التي ائتمنتها عليها. لقد كانت لأمّها حياتها التي عاشتها مع أبيها الحقيقي، بكلّ أحزانها وأفراحها. يكفي الذي عانته أمّها ودخولها في صراعات مع نفسها، نتيجة ما ارتكبته في الماضي. طوت جاسمين بقوّة غلافي المفكّرة. ذهبت صوب الشرفة. ردّدت بصوت هامس عبارة لبوذا «لكلٍّ سجنه، ولكنّ كلّ إنسان يُمكن أن يمتلك القوّة للهروب من هذا السجن». مزّقت المفكّرة لعدّة أجزاء. رمتها في سلّة المهملات المعدنيّة. سكبت عليها قليلاً من الكيروسين. أشعلت النار

فيها. ظلّت تُراقبها إلى أن أصبحت رماداً أسود. أحكمت بعدها إغلاق الشرفة. عادت إلى غرفتها. استغرقت في التفكير إلى أن أثقل النوم جفنيها. استيقظت جاسمين عند الصباح شاعرة بهمّة ونشاط. ارتدت ملابسها على عجل. ارتأت أن تتناول إفطارها بقاعة الانتظار في المطار. ألقت نظرة سريعة على سلّة المهملات الكامنة بالشرفة. كانت فارغة، مُلطّخاً جوفها ببعض السواد. رياح الليل طيّرت رماد الورق المحروق. رنّ جرس هاتفها المحمول. كان سائق الأجرة على الخطّ الثاني، يُبلغها بوصوله. طلبت منه مساعدتها على حمل حقائبها. وضعها داخل صندوق السيّارة. أحكمت جاسمين إغلاق النوافذ وباب الشرفة. تناهى لسمعها، وهي تُوصد الباب الخارجي للبيت، أنين الذكريات ينبعث من زواياه. هرولت نحو الخارج. ركبت السيّارة. أدارت رأسها باتّجاه البيت. خُيّل إليها أنّ أمّها تقف خلف زجاج الشرفة، تلوّح لها بيديها.